لاءات التربية

كتاب يتدارس اللانطباعات المعكوسة عن التربية

تأليف
د.عبد العظيم كريمي

إيداع للنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر والتوزيع

لاءات التربية

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
2013 م - 1434هـ

دار الكاتب العربي

إبداع للنشر

لاءات التربية

كتاب يتدارس اللانطباعات المعكوسة عن التربية

تأليف
د.عبد العظيم كريمي

دار الكاتب العربي
إبداع للنشر

قال تعالى:

﴿ولا تقربا هذه الشجرة..﴾[1]

---

١ ـ سورة البقرة، الآية ٣٥.

مختارات إستهلالية

مختارات استهلالية

ذيقول لاوتزو:

«كلما كنت تملك قدراً أكبر من المحظورات، سوف يكون الناس أقل حظاً من التقوى.

وكلما تملك كماً أكبر من الأسلحة، سوف يكون الناس أقل تمتعاً بالأمان.

وكلما ازداد الدعم، سوف يكون الناس أقل إتكالاً على النفس».

ويقول:

«من هنا، يقول الاستاذ:
إنني أتخلى عن القانون
سوف يتحلى الناس بالصدق.

وأتخلى عن الاقتصاد
سوف يتمتع الناس بالرفاه

وأتخلى عن التعصب والتزمت
سوف ينال الناس الهدوء

إنني أتخلى عن جميع مطالبي تحقيقاً للخير
سوف يصبح الخير عادياً وسائداً كالعشب[١].

١ ـ لاوتزو، «التاوتي تشنج» أو «مصنف لاوتزو».

المدخل:

يأتيك كتاب «لاءات التربية» بملاحظات «غير مسموعة» تفرض عليها المسيرة المعكوسة لحياتنا نحن بني الإنسان معنى مغايراً لما نفكر به وننجزه. فبعد مطالعة هذه النوطات لابد من «كبح» ما تطبعنا عليه وألِفناه و «حظر» بعض ما جهدنا لإشاعته و «الدعاية» لبعض ما منعناه حتى الآن.

فكتاب «لاءات التربية» إنما هو رحلة في «المنطقة المحرمة» وصولاً إلى عالم «أفكار» مكنونة مستترة تم تناسيها في خضم الحياة اليومية.

فإن «لاءات التربية» هي من أكثر الأغذية الروحية شحة وفي الوقت نفسه نقاءاً. ولكن.. تم منع تعاطيها وهي من أوضح الأفكار المألوفة التي غدت، بالتدريج، غير مألوفة.

و «لاءات التربية» هي ترخيصة الدخول إلى «المنطقة المحرمة» التي جسّد لها الإنسان العصري والمجتمع الحديث طابعاً عجيباً وغريباً وهي، في الحقيقة الأكثر معروفية وأصالة من بين المناطق التي لم يكن الإنسان البسيط، الفطري والأمي غريباً عن أجوائها قط بل متوحداً معها على الدوام. وهذه المنطقة تعيد إلى الأذهان أحداث الفلم السينمائي «استاجر» (انتاج اندورا تاركوفسكي» حيث كان بطل الفلم قادراً، بلغة أخرىٰ وبنظرة مغايرة، على اكتشاف ما تكتنفه تلك المنطقة المحرمة من معجزات تنقذ حياة الإنسان.

والمنطقة المحرمة بحسب فلم «استاجر» هي منطقة أُقصي عنها الناس الغريزيون الأقربون إلى الفطرة الالهية من بين جميع الناس. فصار الانسان العصري، في عالم لاوعيه يتقصى، مشوشاً، تلك الديار المفقودة باعتبارها موطنه الحقيقي.

ففي فلم «استاجر»، يقول بطل الرواية لمرافقيه الذين وردوا «المنطقة المحرمة» معه:

«المنطقة المحرمة هاهنا، وكل لحظة فيها هي تلك التي نخلقها بحسب أوضاعنا الروحية.. فكل شيء هنا لا يحدث بسببه بل بسببنا».

يقول تاركوفسكي: «الأمان في هذه (الرحلة المحظورة) يتوقف على عالم الإنسان الباطني». إنه لم يتقبل عالمه الذي عاش فيه قط، وكان يقول: «عهدنا، مرحلة (أزمة نفسية)، مرحلة الحياة في عالم قلّب الجوانب المادية والمعنوية من وجود الإنسان. كان تاركوفسكي يرى ان: «الروح تتقصى النظام بينما الحياة تكتظ باللانظام»[١].

وكتاب «لاءات التربية» هو الآخر تجوال في المنطقة المحرمة التي تستجلي أصل وجوهر الحياة المستترة من وراء حجب عتماء غطت وجه الحياة المتهالكة. حيث هنالك اختلاف اساسي بين الحياة» و «إدراك الحياة». ولا يتمتع بحظ التجول إلى هذه (المنطقة المحظورة) لتحقيق (الحياة الهانئة) ثانية إلّا من يعجز عن التناغم مع الحياة العادية والمألوفة بأسلوب عملي.

---

١ ـ انظر «تاركوفسكي»، بابك أحمدي، مطبوعات «فيلم»، ١٩٨٧م.

«يُحظر أكل الحصى والطين»

يروىٰ أن شخصاً ما مرّ بغابة. وفجأة واجه ظاهرة عجيبة غريبة. شاهد لوحة كبيرة كتب عليها: «يحظر في هذه المنطقة أكل الحصى والطين». واصل الشخص طريقه مندهشاً تعلو شفتيه ابتسامة تهكم حتى لاقى زاهداً يجلس بباب معبد، فسأله عن قضية اللوحة المكتوبة قائلاً: أيُّ أبله مجنون كتب مثل هذا الكلام السخيف؟ وهل هنالك في هذه الدنيا من يأكل الحصى والطين؟ ألم تخطر بباله وصية أخرىٰ ليكتب مثل هذا التحذير الأهوج؟

أجاب العارف بفخر واعتزاز: أنا كتبت هذا الكلام!

سأله الرجل معرباً عن خجله: وما الحكمة من هذه الكتابة؟ ومن تخاطب؟

رد العارف: متى ما أصبحت المنهيات والمحظورات مثيرة للدهشة ومستحيلة إلى هذا الحد عندئذ يمكن الوثوق تماماً من سلامة الأشخاص عقلياً ونفسياً[1].

أي انه فيما لو سادت ظروف صار أداء المنكرات والمحظورات في المجتمع على مستوى من الاستحالة وإثارة الدهشة بحيث يثير منعها انبهار

---

١ ـ د. حسين الهي قشه‌اى، صحيفة «ايران»، ٣٠ ـ ١٢ ـ ٢٠٠١ (بتصرف).

الجميع لبداهة ممنوعيتها والامتناع عن الإقبال عليها، عندئذ يمكن الثقة بثقافة أبناء المجتمع ونضجهم.

في الحقيقة لابد أن يثير حظر إجراءات وأفعال مثل: الارتشاء، الربا، أكل الحرام (السحت)، خيانة الأمانات، الكذب، الرياء، الحقد، الخداع، الحسد وما إليها، الدهشة بمثل مستواها عند سماع أي كلام حول ممنوعية تناول المياه الآسنة أو السم، الجراثيم و... فأي مجتمع لا يتجنب تناول مثل هذه المواد السامة بل يلتذ من تناولها هو، بالطبع مجته متهتك، جاهل ومتهالك حتى لو كان يتمتع ظاهرياً بمظاهر ومؤشرات المدنية وبآداب وتقاليد اجتماعية مستحسنة. فأبناء مثل هذا المجتمع اهون عن التأثير السام لهذه الأطعمة الحلوة اللذيذة المذاق. فيخيل إليهم أن هذه الأطعمة المحظورة مدعاة رصانة أرواحهم وجمال سيمائهم.

ولكن.. يبدو أن الأذواق قد تغيرت فلم يتحدد الأمر بأن لا يصيب ذوق الإنسان العصري الغثيان والنفور من الأطعمة المحظورة في بعض الحالات بل حتى يلتذ بعضهم من تناول هذه الأطعمة المرة القاتلة.

ولكن.. ياترىٰ كيف يستطيب عظام الشخصيات المعنوية والعرفاء ومحبو طريق الكمال والمعرفة، تجشم مهالك البلاء ومصائب الرزايا وصعاب الأحداث الحرجة في الحياة فيهنؤون بها، كما يقول الشاعر مولوي:

در بلاها من چشم لذات او مات اويم مات اويم مات او[1]

بينما كيف تكون نفس هذه البلايا والصعاب البناءة أكثر مرارة من الحنظل وأوقى ألماً من أي داء، بالنسبة للأشخاص العاديين. وبالمقابل تستهويهم العافية والرفاه وظروف اللا عناء واللا أبالاة واللاهم؟

---

١ ـ معناه:

«استذوق لذاته عند البلايا، فأنا به ولهان، ولهان ولهان».

هل يا ترىٰ نُسفت الاندفاعات الفطرية الالهية في أعماق بني الإنسان؟

كيف يمكن احياء الذوق الانساني الاصيل بدلاً عن الأذواق الاصطناعية الاستعارية ليتمكن من انتقاء «الاطعمة السليمة» لمواصلة «حياة سليمة» يتفاعل فيها بأحاسيس سليمة لبناء «مجتمع سليم».

ذكرنا لك ضمن هذه النوطات المتقطعة نماذج من أطعمة محورة ظاهرياً ولكنها منمية وبناءة جئناك بها على وجه الايماء والاشارة من مصادر ومكتنزات «قديمة» و «حديثة» مع قليل من الايضاح عسىٰ أن ينال رضا السابحين في عالم الأسرار وسالكي الديار المحرمة.

عبد العظيم كريمي

ربيع ٢٠٠٢

الفصل الأول:

«محظورات التربية»

«لا، للنمو السنّي»

يؤكد جون فورانسيه أن:
«الطفل ممتلئ والراشد خاو»
ويقول تاركوفسكي:
«يكون الانسان دوماً أقل بلوغاً من ماضيه»

***

نقرأ عن «شل سيلفور استاين» في كتاب «عندما كنت في مثل عمرك»:
«كنت اتكلم عهداً بلغة الورود
كنت أفهم كلام الفراشات
كنت ابتسم من قرارة قلبي لثرثرة الزرازير
كنت ابث الشكوى لفراشة في السرير
كنت اسمع تساؤل الجُدجُد وأرد عليه عهداً.
وكنت أبكي مع كل حبة ثلج تسقط على التراب وتهلك.
كنت أتكلم عهداً بلغة الورود.
أوَ رأيت كيف انقضت تلك الأيام؟
كيف انقضت تلك الأيام؟».
العهد كان عهد الطفولة، عهداً لم نبلغ فيه بعد مرحلة الرشد، عهداً لم يُسخَّر

أو يقلص فيه عالم الراشدين بعد المجال السيال واللا متناهي للخيال والإبداع وحرية الذهن والنفس، عهداً لم نلتحق فيه بعد بالكبار لنختبر الاستصغار. لم نكن قد انتمينا بعد لحسن الحظ إلى الراشدين.

ولهذا يقول لاوتزو: «لو كنتَ راغباً في تحقيق الكمال دع نفسك غير كامل ولو كنت راغباً في الامتلاء ولّد عندك الفراغ».

وبياجه ينقل عن أحد الفيزيائيين قوله:

«أي فيزيائي عبقري هو راشد تمكن من أن يحافظ دوماً على استعدادات طفولته الإبداعية، حيّة في وجوده بدلاً عن أن يطمرها تحت وطأة الضغوطات الاجتماعية التحفظية»[١].

وفي رثاء الطفولة الضائعة نقرأ في كتاب «ثاني مكتوب» لباولو كويلو:

«روى راهب يدعى «استيذل راست»: سألتني ابنة أحد اصدقائي يوماً: أليس عجيباً أيها الأب أنني موجودة؟

الأطفال يعلمون غريزياً أن الحياة معجزة و (بعضنا) نحن الكبار أيضاً نعلم ذلك لأننا ما زلنا نحتفظ بطفولتنا، فان الجزء الطفولي من باطننا لن يموت أبداً. ربما نقدر على تجاهل سذاجة مثل تلك الفتاة وارغامها على ان تكون أكثر جدية وأن تحترم القوانين السائدة في عالم الكبار. ولكنها تواصل هي الأخرىٰ بقاءها ما دمنا نحن على قيد الحياة. إذاً يحسن بنا أن نتقبلها. فخلال تعلمنا دروس حياتنا اليومية لابد أن نمزج هياجنا الطفولي مع عقلنا المترشح عن خبراتنا. ولتنفيذ هذه المهمة يتوجب، كما يقول المسيح عيسى ابن مريم، ان نلد من جديد. فلو كان اليوم هو أول أيام حياتكم، ماذا كنتم تفعلون؟»

ويذكر الكاتب نفسه في موقع آخر:

«بعد انتشار كتاب (الإكسيري) قررت أن أقيم مدة من الزمان خارج

---

١ ـ انظر كتاب: «رأي بياجه حول مجال النمو النفسي عند الأطفال».

البرازيل ولكني كنت قلقاً جداً ماذا سوف يجري على كتابي في البرازيل. ذات يوم وصلني النص التالي جعلني أواجه نفسي ثانية:

(لو كنت بالفعل طفلاً، طفلاً حقيقياً، فبدلاً أن تُقلق نفسك على أمر تعجز عن أدائه، كنت تراجع خلال صمتك مرحلة طفولتك وتعوِّد نفسك على النظر بهدوء إلى العالم، إلى الطبيعة، إلى التاريخ وإلى الله).

لو كنت بالفعل طفلاً، لكنت الآن تقرأ كتاب (هاله لويا) لما أمامك من موجودات، ولكنت تنتفع من هذا الزمان بالاستطلاع والحلم بعيداً عن هذه التوترات والهواجس والتساؤلات العابثة، وتتوقع تحقيق مردودات أمور وظّفت لأجلها حبك»[1].

ونفس هذا المضمون يعرض له الفيلسوف المتعمق «هلوسيوس» في إطار آخر، فيقول:

(صحيح اننا نحن الكبار نعلم أكثر من الصغار ولكن هذا لا يعني أن ما نعرفه أفضل وأكثر صحة).

ما ترشحه نواة هذا الكلام يشهد على ما تتسم به مرحلة الطفولة فيما يخص نمط الحياة والاستيعاب البريْ المسترسل لمفهوم الحياة الطيبة مما ينبغي صيانته من الادراك الاصطناعي الساهي للحياة. فمرحلة الطفولة فرصة في غاية الروعة للتمتع بالوعي النقي، الأبدية الممتعة والسذاجة المبدعة. من هنا يقول العارف الفهيم المتحمس (اوشو):

الطفولة أفضل مراحل حياة الإنسان للتأمل. فالانسان مع تقدمه في العمر يزداد قرباً إلى الموت ويغدو «الانشغال بالتأمل» أكثر مشقة بالنسبة له.

والتأمل يعني الالتحاق بوادي الأبدية، يعني التقدم في رحاب الأبدية الباطنية، يعني استيعاب إلوهية الباطن.

---

١ ـ عن «المكاتيب»، باولو كويلو (الراهب الايطالي، كارلوس كارتو).

والطفل، يعتبر أولى مخلوق لهذه المهمة حيث لا يثقل كاهله عبء العلم، الدراسة وأمور أخرى. إنه ساذج.

ولكن سذاجته هذه توضع لسوء الحظ، على حساب الجهل. فالسذاجة والجهل يتشابهان معاً. ولكنهما غير متماثلين تماماً. فوجه الشبه بينهما «عدم المعرفة»، إلّا أنه هنالك اختلاف بيّن بينهما يتجاهله بنو الانسان حتى يومنا هذا.

الطفل لا يرغب في تحقيق الجاه، لا طموح له. تجتذبه اللحظات. تستقطب عينيه تماماً لحظة تحليق فراشة بجناحين منبسطتين. فمشاهدة فراشة جميلة زاهية الألوان تكفي لإثارة هياجه. إنه يرى القوس قزح في السماء ولا يمكنه تصور ما يكون أكثر ملئاً للعين وغنى من هذا القوس قزح. وهكذا الليالي ذات السماء المكتظة بالنجوم و.... فالسذاجة غناء، ثراء، نقاء.

السذاجة وضع يسوده اللا طموح.

ولكن الجهل فقر أساساً. انه استجداء، يريد هذا ويرغب في ذاك، يتقصى الفضل والاحترام والثروة والقدرة. الجاهل يتهافت نحو الرغبات والطموح.

ولما كان كلاهما لا حظّ له من العلم. لقد تهنا نحن بني الانسان في معرفة ماهيتهما ولنريح أنفسنا، حسبناهما متماثلين.

فأول خطوة على طريق تعلم فن الحياة هي تحديد الخط العازل بين «الغفلة» و «السذاجة». فالسذاجة لابد ان تتعزز، أن يُحافظ عليها. السذاجة كنز ثمين للغاية يتم إهداؤه من قبل الطفل، كنز يتوصل إليه العقلاء والحكماء بعد تجشم عناء طويل. وقد قال العقلاء أنهم تحولوا أطفالاً من جديد في نهاية المطاف، أنهم أحرزوا ميلاداً جديداً.

في الهند، يسمي الفاضل الحقيقي نفسه «دويج» أي المتولد من جديد. لماذا من جديد؟ وماذا حدث للميلاد الأول؟

وما الحاجة للميلاد من جديد؟ وما هو مردود الميلاد الجديد بالنسبة له.

فخلال ميلاده الجديد يحقق ما كان بحوزته في ميلاده الأول ولكن حطمه ونسفه مجتمعه وأبواه والمحيطون به، (اوشو، السر، ص ٣١ و ٣٢).

هذه العبارة المتعمقة تعيد إلى أذهاننا كلام رائع للنبي عيسى ابن مريم ﷺ حيث يقول بأنه لا يرتقي المعراج أي راشد إلّا إذا ولد في طفولته.

ويكشف «كريستيان بوبن» في كتابه «الحياة من جديد» عن خبراته المدهشة مع الأطفال، فيقول:

«قضيت حوالى عشر سنوات من العمر في التجوال مع الأطفال. إنها مهمة تماثل الدراسات في العلوم الالهية. فلو كان هنالك أي علم لديّ فإنه من هذا النمط: فن الكينونة بالكل وبدقة لا متناهية ورصانة. من هنا فإن الأطفال يجتذبونني دوماً، لأنهم بتواجدهم النقي يتمتعون بنعمة الكمال.

في سن الثلاثين كنت أفضل أن ألعب بالدمى المطاطية حتى تعلمت طريقة صنعها. ولم أنجح قط أن أوضح لأحد أن تضييع الوقت بهذه الوتيرة هو أفضل تسليات العالم. على أية حال، الأطفال يتغلبون على الزمان دائماً».

ويقول في موقع آخر:

بإمكاني أن أقضي ليلي ونهاري مع طفل وليد. إنه كالقادم من الطريق تواً، لم يلحقه على الإطلاق أي أذىً جراء الحقائق وكذلك العادات المزيفة. فالأطفال حديثو الولادة مثل «بوذا» يحملون في كيانهم نوعاً من الحكمة.

فكما يقول استيفان نوفيتش: (أقوى ملقن للإنسان هو طفل باطنه. فلو يتم اكتشاف هذه الدرة الثمينة تظهر الحياة بكلها أمام الإنسان).

إذاً، حقاً، يجب ان نهاب الالتحاق بعالم الكبار. ولنردد معاً وبصدى واحد: لا، للنمو السنّي.

«لا، للعقلانية»

يقول «نيتشه»:

«الغريزة أكثر ذكاءاً من العقل»

***

الإنسان الحقيقي لا يمكن التنبؤ به أبداً، إنه حر، وأوسع نطاقاً من التقيد بالحياة العقلانية. ولهذا فإنه محطم للأطر. ورمز تقدم وإبداع الإنسان كذلك يكمن في نفس هذا التحطيم (اللا عقلاني) للأطر.

ينقل «تشارلز هَندي» عن «برناردشو» في كتاب «عصر نبذ التقاليد» قوله:

«يرتبط التقدم تماماً بالانسان الغير عقلاني». فالانسان العقلاني يكيّف نفسه مع الوضع القائم (في العالم) بينما الانسان الغير عقلاني يكيّف الوضع القائم مع نفسه واحتياجاته. على هذا ولحدوث أي تغيير جاد، يجب ان نعقد الآمال على (الانسان اللا عقلاني)».

ويردف «هندي»: (هذا الكلام نطق به برناردشو في عهد ربما اتسم فيه أكثر الناس، بالعقلانية. وكان التكيف مع الوضع القائم دوماً من أكثر الاجراءات عقلانية. ولكننا نقف على أعتاب عصر غير عقلاني، عصر يكون أدق تنبؤ فيه هو: لن تثبت صحة أي تنبؤ قط! عصر يتلاءم مع التخيلات

والتطورات الجريئة، أي نفس الأمور التي تظهر غير عقلانية»[١].

إذاً، هل يمكن أن نقول: في مثل هذا العصر يتولد ما هو «عقلاني» من «الغير عقلاني». وما هو «صحيح» يعتبر مع الوضع القائم «غير صحيح» وما هو سوي وقياسي في صراع مع ما هو «غير قياسي» بحسب الوضع القائم. لا يمكن الرد على هذه التساؤلات بإجابات أحادية الاتجاه ومؤكدة. ولكن يمكن تحديد ردود عدة ومتنوعة إزاءها، ردود تجري في سياق حوارات العصر الحديث وتنسجم مع الهوية المتقطعة للعالم الحالي.

وفيما يرتبط بتحليل عقلانية الإنسان الغير عقلاني وبالعكس، في العصر الحديث يكفي أن نذكر قول المحلل النفسي الكبير المعاصر «كارل غوستا يونغ» في آخر لحظات تفاعله الفكري فيما يخص عنصر التحول والإبداع في مستقبل العالم حيث يكتب: «ليس التحول والإبداع إلّا التوجه نحو الباطن والاستناد إلى الدوافع الإبداعية الغير عقلانية وتجليات (اللا وعي)!».

هنا يشير يونغ إلى عنصرين غير مألوفين وغريبين عن عالم العقل والفكر المألوف. أحدهما حالة «اللا عقلانية» في الدوافع الإبداعية عند الإنسان، والآخر حالة «اللا وعي» في التجليات. وهو ما يتلقاه الأغلبية من عامة أبناء المجتمع بأنه أمر زائف باطل. فالإنسان المبدع هو من يفكر بلا عقلانية ويهتدي باللا وعي لا بالعقل والنباهة الذاتية.

وبتعبير آخر، التملص من إطار العقل المألوف والتنكر له هو التعقل الولعي الهيامي بعينه.

ويقول «باولو كويلو» عن الأشخاص الغير عقلانيين الراغبين في الجنون ممن يتحاشون التكيف مع آليات وأنغام الحياة الغير منسجمة:

---

١ ـ نقلاً عن كتاب «ابداعات صغيرة، تطورات عظيمة»، د. علي رؤوف، الكراس (٢٨) لمعهد «التعليم والتربية» للأبحاث، تموز ٢٠٠٠.

لا تحاولوا أن تكونوا متناغمين. الأمر مهما يكن فقد قال القديس «بولس»: (تعقل العالَم في نظر الله جنون)[١]. فالتناغم يعني ان تربط إلى عنقك دوماً رباطاً يتلاءم مع الجوراب، وبمعنى أن يكون لك في غدك نفس آراء اليوم. فماذا عن حركة السيارات؟ اين تتجه؟ إلى متى لا تُعرّض الغير للأذى. أحدثوا التغيير في الآراء بين فينة وأخرىٰ. عارضوا أنفسكم دون الشعور بالخجل.

فهذا من حقكم. لا يهم ما يفكر به الآخرون... لأنهم سوف يفكرون هكذا على أية حال. دعوا العالم يسير في مساره. حققوا متعة مفاجأة الذات.

قال القديس بولس: «خلق الله الجنون على وجه الأرض ليُشعر العقلاء بالخجل»[٢].

وفي موقع آخر يقول برناردشو:

(العاقل يكيف نفسه مع الدنيا والجاهل يحاول ان يكيف الدنيا مع نفسه. على هذا، فان جميع خبرات التقدم في العالم من نتاج الأشخاص الجهلاء.

وربما لنفس هذا السبب يقول اراسموس في كتاب «في مدح الجنون»:

«أعظم سعادة في الحياة هو فقدان العقل السليم».

فعند التمتع بالعقلانية يجب ان نقلق بشأن «التقبلية»، التقبل من قبل هذا، من قبل ذاك ومن قبل مقاييس المجتمع ومنطق الغير. في مثل هذه الأوضاع يتخلى العقل والفكر عن التقصي والإبداع ولا يُنجز إلّا التقليد والاقتباس. اما إذا تحرر العقل من «العقلانية» يتنامى الفكر التباعدي المتحرر وهو قاعدة

---

١ ـ لأن حكمة هذا العالم، عند الله جهل. (من الرسالة الاولى لبولس إلى قرنيتان).

٢ ـ فبحسب ما جاء مكتوباً: يبتلي الحكماء بمكره. الرسالة الأولى لبولس إلى قرنيتان ٢٠: ٣ نقلاً عن «المكاتيب» لباولو كويلو.

واساس الحيوية ومدعاة تحطم المنطق المألوف التقاربي. فكبح المنطق والفرار من التعقل هذا هو نوع من الجنون. من هنا شهدنا على مر التاريخ ظهور شخصيات متعمقة الفكر، زاهدة المنهج سمّوا بالمصطلح، المتعارض في أجزائه، «العقلاء المجانين». ولكن هذا الجنون لم يكن إلا الشغف. فلا يفصل العبقرية عن الجنون، على الدوام، إلّا فاصل زهيد تتم إزالته في بعض الحالات، ارادياً وعن وعي. وكما يقول «اوشو»:

«للحب أيضاً جنونه الخاص. فما هو هذا الجنون؟ الجنون هو ان لا يكون لديك مبرر لترد به على السؤال: لماذا تشغف حباً؟ لا تملك أي جواب منطقي فأنت خلال الحياة اليومية تتقصى هدفاً في كل عمل تنجزه ولك دليل منطقي لأدائك له، كأن تنجز معاملة لانك بحاجة إلى المال. وأنت بحاجة إلى المال لانك تريد شراء داراً. وأنت بحاجة إلى الدار لأن العيش دون الدار والمأوى غير ممكن»[1].

إذاً، الطريق لتحقيق «العقلانية الذاتية الغريزية» هو التخلي عن «العقلانية الغيرية» فلو حسبنا «العقلانية» مفهوماً يعادل «المألوفية» فإن ذلك يعني سيادة «الفكر المألوف»، على جميع أبعاد الحياة.

فلو يحدد الانسان قابلياته ويحصرها في إطار العقل المقرر أي نفس الحياة العقلانية، لا يتخطى أبداً ما هو عليه بالفعل أو ما يتوقعه منه الآخرون. أما الفكر الناقد، الفكر المتعقل، الفكر المتحرر من المقاييس، الفكر المبدع، لا الاستجابي المتجاوب، فانه لبقادر على شق قشور الحياة العادية لخلق حياة جديدة.

فلمصطلح «العقلاء المجانين» عند العرفاء واتباع المذهب الإشراقي مكانة خاصة. فذوو الاتجاه العرفاني من أمثال: اويس، الحلاج، الشبلي، سعدون،

---

١ ـ «الحب، رقصة الحياة»، ص ٥٣.

بهلول، ريحانة، آسية، الشيخ العاشق، ابن عربي، الشاعر عطار النيشابوري ولتحقيق الاتصال بالحقيقة شهدوا السلوك إلى الله في عرصات مثل التيقظ ولا وعي الذات والمعرفة العقلانية والمعرفة الشهودية.

يقول الواعظ النيشابوري: كانت الأقوام السابقة تسمي رسل الله دوماً «المجانين» لأنهم كانوا يدعون الناس لمذهب جديد لا يتطابق مع العادات السائدة (والعقلانية).

وكان العارف الإلهي إبن عربي يسمي هؤلاء المجانين أصحاب عقول بلا عقول[١].

فليس هنالك من عبقرية نقية خالصة يكتب لها الاستمرارية لولا قليل من الجنون. فشخصيات مثل: وانجوج، كافكا، مونك، از راباوند، ارنست همينجوي، اوجن دونيل، داروين، داستايوفسكي و... كل منهم كان له حظ من هذا الهياج والجنون، حظ ناله إزاء التخلي عن نصيب كبير من الحياة المعقولة والعيش العقلاني[٢].

ويكتب «ميشيل فوكو» في كتاب «تاريخ الجنون»:

«قبل ان يكون للجنون ارتباط مع الحقيقة والعالم، له ارتباط مع الإنسان وحقيقة وجوده بمستوى قابليته على استيعاب ذلك».

هكذا تعتبر الحياة العقلانية وسيلة لتحقيق العقلانية النقية ليصبح بالإمكان إدراك حقيقة ما وراء العادات والفكر المألوفين.

---

١ ـ انظر «آخر شطحيات»، نيتشه.

٢ ـ انظر: «تأملات في غير موعدها المناسب» لفريدريك نيتشه.

«لا، لتعليم الأخلاق»

«من يقيّم سلوكه بالموازين الأخلاقية يؤسر طائر روحه الغناء في قفص»[١].

***

يقول المحلل النفسي الكبير «كارل غوستاف يونغ»: «بنفس درجة ما يحققه «وعي» الانسان من تنامي وتغيير، تتراجع وتنحسر منجزاته الأخلاقية»[٢]. أي كلما تتجرد الأخلاق عن الانعكاسات الفطرية الطبيعية لتتأطر بالتفاعلات الدفاعية التحليلية وكلما نحوّل طابع الأخلاق من الأصالة الباطنية إلى الإثارات الخارجية نكون قد قلصنا دائرة صدق ونقاء الفعل الأخلاقي النابع من النية الالهية المتركزة على الله.

وربما لنفس هذا السبب يقول أحد المفكرين من السلف القديم في كتاب «أفكار متى»: قلما رأيت فعلاً أكثر ضرراً لأخلاق الإنسان من الإنشغال بالتعليم الواعي للأخلاق[٣].

---

١ ـ عن كتاب «النبي»، جبران خليل جبران.

٢ ـ عن كتاب «من الرؤيا إلى معرفة الذات».

٣ ـ «أفكار متى»، برتولت برشت.

ويقول نيتشه متمادياً في تجرده عن الأخلاقيات: ما دمنا نؤمن بالأخلاق (عن وعي) نكون قد أودعنا الحياة في السجن[١]. ويقول في موقع آخر: (المشاعر اللا أخلاقية والمتابعات اللا أخلاقية هي ينبوع القيم الأخلاقية).

فالصدق والنقاء والتوحد (انعدام التعارض) لا تتحقق في الأخلاق إلّا إذا أُنجز الفعل الاخلاقي باسترسالية وبعيداً عن التوقعات الخارجية وأحياناً اللا واعية، أي أن تنفذ بشكل طبيعي وباطني تماماً. فأي تصنّع وتظاهر أخلاقي يكون عن وعي ونباهة تصنعية هو بحد ذاته هدام ومُفسد للعمل الأخلاقي. لأن الأمر كما يقول يونغ: «لا تنبثق الخبرات النفسانية من الخارج فقط ولا تتوقف المضامين المعنوية على أساس التلقيات الحسية فقط بل هنالك كذلك حياة غير منطقية، باطنية ونفسية وهي «الحياة المعنوية»، لا يعرف عنها أحد شيئاً أو لا يرغب في معرفة شيء عنها سوى بعض «العرفاء». فالحياة الباطنية يتم تصورها، غالباً، باعتبارها مسيرة غيبية يجب ايقافها»[٢].

فالفعل الأخلاقي لابد أن يتحرر أساساً من قيود الإثابة أو العقاب الخارجيين، أن يتحرر من القانون والقواعد الضميرية، من الضرورات والمحظورات القسرية، ومن المنافع الواعية! فأي ارادة واعية للفعل الاخلاقي وتيقظ إزاء مردوداته الانتهازية تلقي الانسان في مغبة التكبر والعُجب والرياء، وتحول الاخلاق إلى «اللاأخلاق» وعندئذ يتلون التواضع بصبغة «التكبر». و «الكِبر» يحمل الانسان لتقصي عيوب الآخرين والإغفال عن عيب الذات. يرى الانسان نفسه محفوظاً في هودج «العصمة» والآخرين يرزحون على طريق الابتلاء. فكل هذه المؤاخذات واللعنات تنبع من كون الانسان يعمى، على طريق ضلال الكِبر والغرور، عن رؤية جراحاته ولكنه يرى وبدقة آلام

---

١ ـ الرغبة والارادة القائمة على القدرة، نيتشه.

٢ ـ يونغ، المكاتيب. نقلاً عن كتاب «من الرؤيا إلى معرفة الذات».

المخلوقات جميعاً. في مثل هذه الأوضاع حتى الإعراب عن مشاعر الرأفة والحنان يستبطن التكبر أحياناً. ومتى ما تبلورت الحاجة إلى التعاطف لا ينال أحد إلّا إستعطافاً نابعاً عن سمو أخلاقي مزيف. فلا يكون من شأن الناس سوى التعاطف فيما يخص آلاماً عامة مشتركة. وإلّا فإن حنان المستعلين لا يكون إلّا تكبراً عظيماً يخفي نفسه حتى عن عين صاحبه. في مثل هذه الحالة ترى الانسان يتواضع تكبراً، وبنحو عجيب. إنه تواضع مغالى فيه لنيل إطراء الجميع. فالتكبر قد يزحف بمكر إلى باطن الانسان فيفرغ روحه. هنالك من ذاع صيت تواضعهم وتعاظم اعتزازهم من قرارة نفوسهم بتحليهم بهذه الخصيصة الحميدة التي تمنحهم درجة أعلى قياساً إلى الآخرين. وهذا الشعور بالعلو لا ينأى عن التكبر إلّا بمسافة قصيرة. فمن (يدرك أنه يتواضع لابد أن يمنح نفسه مكانة رفيعة ثم بعد ذلك يهبط عن نبل (!) إلى مستوىٰ من يتصورهم دون مستوىٰ ذاته. ليزيد بذلك من رفعته[1]. في الحقيقة، لو لم يكن التعليم الأخلاقي متناغماً مع الكوامن الفطرية المتقصية فثه لا يكون له طائل إلّا إثمار الرياء والتصنّع الأخلاقي.

جاء في حكمة كنفوسيوس: أثار لص معروف يدعى «كوشي» انتباه كنفوسيوس الفهيم. كان في الحقيقة يخيل إليه أنه قادر على استقطابه نحو الأخلاقيات الدينية ولهذا ارتاد كنفوسيوس منطقة جبلية كان اللص يقيم فيها معتزلاً. فانشغل بتعليمه وتربيته. ضاق ذرع «كوشي» سريعاً من كلامه الرتيب فصاح فجأة: انت أقوى سذاجة حتى من أي طفل. أخلاقياتك تنفعك أنت. فلو أردتني أن أفهم علّمني الوجه الآخر للأخلاق. أقولها بصراحة لم أكن أتصور أن كبار العقلاء سفهاء سذج إلى هذا الحد. عاد كنفوسيوس. ولكن، في

---

١ ـ انظر صحيفة «آفات الزاد الإنساني»، سايه ميهمي، ايران، ١٩٨٧. العدد الصادر بتاريخ ١ ـ ١٢ ـ ٢٠٠١.

سياق التعليم والتربية، كان ذاك الحدث درساً عظيماً لكنفوسيوس[١].

على هذا، كلما ازداد الفعل الأخلاقي نأياً عن نبعه الباطني ومنبثقه الفطري الاسترسالي وقرباً من المحفزات الخارجية والتوقعات الاجتماعية في إطار التشجيع والعقاب أو المقبولية أو الوجاهة المتأتية من الغير أو من الآخرين عموماً تتقلص، وبنفس الدرجة، قدسيته ونقاؤه. هكذا يتحول التعليم الاخلاقي إلى تعليم لا أخلاقي.

فأفضل المعلمين ليسوا معلمين وأفضل المربين ليسوا مربين. إنهم اشخاص لا يتحملون مسؤولية التعليم ولكنهم يعملون على احياء روح التعلم وانفتاح مستودع المعرفة في ذات محدثيهم، هكذا يغدو أشخاص لا يمتهنون التعليم أمثل معلمين للأخلاق!

ما يهم هو أن نتبصر الحقائق ونستوعبها باطنياً لا أن نفكر بطريقة تطبيقها. أنت عندما ترغب في ممارسة لعبة كرة القدم أو أية لعبة أخرى تستهويك، تجد لذلك الطرق وامكانيات أدائها ولن تتساءل أبداً كيف تطبق ذلك عملياً. تفعل ذلك لأنك متلهف لأدائها، لأنك مشغوف بها بكل وجودك وكل قلبك وذهنك. فالسؤال عن كيف أتعلم هذا الأمر استفسار لم يطرح عن تدارس!

ويحذر «جان جاك روسو» أيضاً الأولياء والمربين من الاستناد إلى مثل هذه الأساليب التصنعية والاستعارية في التعليم ويقول بوضوح:

«التعليم الأخلاقي ليس تعليماً للأخلاق بل توفير خلفيات تحقق حسن طبيعة الإنسان! وإثارة وتفعيل الوجدان الأخلاقي».

ويستند «جان جاك روسو» في آرائه حول التربية الأخلاقية إلى اسلوب التربية السالبة، فيقول: ليس من الضروري أن نتحدث إلى الأطفال حول أهمية الصدق والاستقامة بل يكفي أن لا نعلمهم الرياء ولا نرغمهم على

---

١ ـ عن «حكايات زن المائة».

الكذب. فبدلاً عن إسداء النصح وكذلك اللجوء إلى المنع والنهي، يحسن بنا أن نهيئ لهم الأرضية اللازمة للتحرك والنشاط واللعب والرياضة[١].

«التربية الدينية كذلك لا تتحدد قط بمجرد تعلم الآداب والأحكام الدينية بل التربية الدينية هي إذكاء حب الله وحمده عند الانسان»[٢].

من هنا، فإن الأخلاق الباطنية، الأخلاق الفاعلية، الاخلاق الذاتية التوجيه والانبثاق، الأخلاق الحرة، الأخلاق المتحررة من الضبط الخارجي، المتحررة من دافعية التشجيع والعقاب الغيري، الأخلاق الفطرية والطبيعية، والأخلاق

---

١ ـ لأوشو آراء ملفتة حول هذا الموضوع. حيث يقول:

«الوجود متكامل على ما هو عليه ولا حاجة له إلى التحسن. فالمصطلح عليهم «القديسون» يواصلون الجهد بإطراد لتحسين مستوى أنفسهم: اترك هذا واحذره. إقبع هذا وافرض ذلك. هذا سيئ وذاك جيد... إنه جهد متواصل مستمر... انهم يضلون الدرب خلال نفس هذا المجهود.

فأبسط وضع هو أن نواصل العيش بلا سعي، فالبساطة تعني التواضع. لا التواضع المتولد عن «لا إباء»، ولا التواضع المتكون في معارضة النفس، ولا التواضع المفتقر إزاء الذهن. فالتواضع لا يعارض الغرور بل التواضع هو غياب الغرور.

حاول أن تفهم الحقيقة. فتواضعك لو كان يعارض الغرور، لو كنت مرغماً على بذل الجهود للإطاحةبالغرور والنفس والإباء تكون، فيما أنجزته، قد قمت. لا غير. فأنت الآن مفتقر بتواضعك. سوف تبدأ الاعتزاز والتفاخر بأن: كم صرت متواضعاً! هكذا يحدث الأمر. انظر إلى هؤلاء المتسمين بالتواضع. إنهم يتبجحون بتواضعهم على قدم وساق.

فالمتواضعون الحقيقيون يجهلون بأنهم متواضعون فكيف لهم أن يتبجحوا بذلك؟ وكيف للمتواضع أن يعرف أنه شخص متواضع. فالشخص المتواضع لا يعود شخصاً انه آيل إلى الفناء.

٢ ـ نظرة الى فلسفة التعليم والتربية، د. نقيب زاده، ص ١٢٩ ـ ١٣٠.

الارادية والقلبية والايمانية، هي الأخلاق المحطمة لقيود أسر مختلف أنواع التعليم الشكلي الصوري والايحاءات الخارجية.

فالأخلاق لو تتحرر من القيود الخارجية وينبثق الفعل الأخلاقي من روح النقاء والصدق، وباسترسال، يكون الشخص عندئذ متطبعاً بثبات القيم الأخلاقية وبديمومة الأخلاق الإنسانية ومحققاً للإنسان الأخلاقي. ولكن يبدو أن ما يبعد الأخلاق عن جميع حالات الصدق والبساطة والأصالة هو التعليم المدرسي والتعاليم التصنعية الموجّهة بفعل التشجيع أو العقاب الخارجي.

وما يُظهره القانون هو في الحقيقة أدنىٰ حد للأخلاق. فالأخلاق أعمق من القانون. فترسيخ الأخلاق في أعماق الباطن يُرسخ فيها القانون وليس بالعكس. من هنا، فإن الأخلاق أقوى تأثيراً من النصائح التعليمية! وقيمة الأخلاق تتحدد بكون الإنسان اختارها بحرية وقربة إلى الله. ففي غير هذه الحالة تتحول إلى كبح للأخلاق.

«لا، للتوجيه»

يرى العالم النفساني الإنساني الاتجاه وصاحب نظرية علم النفس (المُركز على المراجع) (كارل روجرز»، أن المعالج يجب عليه خلال عملية العلاج أن لا يلجأ أبداً إلى توجيه المعالج بأسلوب آمر أو يسدد له الوصايا والنصائح. بل يتعين على المعالَج أن يوجّه نفسه من الباطن. ما أثار اهتمام «روجرز» هو «النـزعة الفـطرية للسـير نـحو النـمو» أي النـضوج Maturity والتـطور الايجابي.

فاتجاه روجرز العلاجي اللا موجَّه أو المركز على المـعالج يـقوم عـلى اساس هذا الافتراض الرئيسي وهو أن «كل شخص (في حالة توفر الظروف المناسبة) يتمتع بدافعية واستعداد كاف للهداية والرقي».

فكل منا يمثل أفضل أخصائي وموجِه لنفسه. فالمعالج (المربي) يكـون خلال تقصي الشخص لقضايا وتحليل ذاته، كلوحة عاكسة ومرآة تكشف عن الكوامن والاستعدادات الفطرية والنفسية.

ويرى «مانوئيل كاستلز» صاحب الكتاب المثير «عصر المعلومات» أيضاً أن الطفل وبدلاً عن الاستناد إلى الهداية والبرمجة من قبل الكبار خلال عملية النمو والتطور يجب ان يحقق «الارادة الذاتية» و «الضبط الذاتي» و «الإشراف الذاتي» بتنمية القابليات المعرفية والاجتماعية فيتحرر في نهاية المطاف من كل أنواع التوجيه والهداية الغيرية (من قبل شخص آخر أو أشخاص آخرين).

ويقول فيلسوف حقل التربية والتعليم الكبير «اشتاينر»: «التربية لابد ان تتم على نحو يستغني فيه المتربي عن المربي»[١].

فالاتجاهات التربوية لابد ان تتجرد اتجاه التربية. ليتربى المتربي لا كما يروق لنا ولا كما تتطلب الظروف والأوضاع الاجتماعية والموضات الدارجة بل بحسب استعداداته وقابلياته الفطرية. فكل يسير وفق سيرته و (كل تدخل وهداية قيمومية وتوجيه تحاملي يمنع التربي الواقعي). ولاستبانة المردودات الضارة لمثل هذه التدخلات، الرؤوفة في ظاهرها، نذكر هذه الحكمة المعبِّرة والمحذرة.

يسرد «نيكوس كازانتزاكيس» مؤلف كتاب «زوربا اليوناني»، أنه حدث له في عهد طفولته أن شاهد شرنقة دودة قز على شجرة، بالتحديد عندما كانت تستعد لشق شرنقتها. فانتظر قليلاً ولكنه أخيراً، عندما استبطأ خروجها، قرر أن يُعجّل في تنفيذ هذه العملية. فوفر الدفء للشرنقة بحرارة فمه حتى شرعت القزيّة بالخروج ولكن بجناحين مازالتا غير متفتحتين وبعد قليل، ماتت القزيّة.

يقول «كازانتزاكيس»: «كان المطلوب نضوج صبور مع إسناد الشمس ولكني لم أكن أعرف الانتظار. ذلك الجثمان الصغير ما زال يثقل عبء ضميري حتى اليوم ولكن نفس ذلك الجثمان جعلني أفهم أنه ليس هنالك إلّا اثم كبير حقيقي واحد هو: الضغط على قوانين الكون العظمىٰ. الحلم مطلوب وهكذا انتظار الموعد والتقدم بثقة في مسيرة اختارها الله لحياتنا»[٢].

ففي الحقيقة، تتجذر أغلبية الصدمات التربوية والانحرافات الأخلاقية والتشوشات النفسية عند الأطفال والناشئة، سواء في نظام التعليم الانتظامي

---

١ ـ المصلحون العظام، جان شاتو.

٢ ـ المكاتيب، باولوكويلو.

(المدرسي) أو غير الانتظامي (الاسرة والمجتمع)، في الاجراءات المتسارعة والتدخلات السابقة للمواعيد المناسبة وكذلك التوجيهات التحاملية المنفذة خلال مراحل نموهم وتربيتهم. يحدث مراراً أن يرغم المعلم تلاميذه، قبل ايجاد الخلفية وتوليد اللهفة للتعلم لديهم، لتعلم موضوعات ليس لهم أدنى ارتباط بها وبأسلوب تحاملي وقبل الموعد المناسب لذلك. ويُلاحظ تكراراً ان يحاول الأبوان، بدافع الحرص والحنان، أن يعلّموا أبناءهم القيم والمفاهيم الاخلاقية والدينية دون عمل حساب لاستيعابهم ونضوجهم واستعدادهم وقابلياتهم. هكذا يعلو صوت جان جاك روسو معارضاً هذه التدخلات الصادمة والحنان غير الضروري، فيقول،: «ما دام الطفل طفلاً ولما يتم التلاعب به وتعليمه، يتمتع بطبيعة نزيهة وسلوك بريْ. ولكن منذ أن تبدأ تدخلات الأبوين بشكل متسارع في سياق تربيته، تجري مسيرة نمو الطفل الطبيعية في مسار منحرف»[١].

وفي موقع آخر يقول «روسو» بوضوح: «دعوا الأطفال يمارسون الطفولة في طفولتهم ويحققون النضج في طفولتهم»[٢]. فمثل هؤلاء الأطفال يتمتعون مستقبلياً في كبرهم، بالنضوج والحلم. أما إذا تجاوزت توقعاتنا منهم حدود قابلياتهم وتحققها قبل الموعد المناسب فسوف نفقد كل شيء.

في الواقع لم ينجح أي توجيه خارجي حتى الآن في إرشاد أحد ما لم يؤيده الوضع الباطني. فالتوجيه التحاملي الخارجي يكون غالباً محمّلاً بدوافع التمرد وعدم التماثل، وفي النهاية الضلال والانحراف.

هكذا يجدر القول ان اي تدخل قيمومي وتوجيه تحاملي يمنع كشف الطفل عن فطرته وازدهار قابلياته بشكل طبيعي. لابد أن نقول بكل وضوح وجدّيّة: لا، للتوجيه.

---

١ ـ و ٢ ـ انظر مقدمة كتاب «أميل»، جان جاك روسو.

«لا، للتيقظ»

يقول المحلل النفسي المعاصر وكاشف اللا شعور الجمعي «كارل غوستاف يونغ»:

«اللا شعور ليس تنيناً شيطانياً بل ذو طابع حيادي، أخلاقي وجمالي ومتيقظ. ولا يكون خطيراً إلّا عندما يكون الاتجاه الباطني للشعور عندنا غير صحيح» فبازدياد هذا الضغط وتعاظم عتاب اللا شعور يتفاقم خطره، بينما عندما يُقبل الشخص على ايجاد التوازن في مضمون اللا شعور القائم بالفعل لديه يتراجع الخطر الذي يتوعد اللا شعور... فالشيء الذي يخافه ناقدو الباطني هو هيمنة الشعور عن طريق اللا شعور وهو ما يظهر غالباً، أي بالضبط عندما يسحق اللا شعور تحت وطأة ما يتعرض له من ضغط[1].

من جهة أخرىٰ فان مفهوم اللا شعور الجمعي (Collective Unconscious) هو أحد المفاهيم المثيرة للنقاش التي أبدعها يونغ في نظريته. واللا شعور الجمعي هو مخزن الذكريات الأجناسية (العرقية) وخبرات الشخص النوعية التي ورثها عن ماضي الأسلاف. والانسان الواعي يستخرج من هذا الرصيد الخفي عنصر التكامل وكنوز التعالي وذخائر متوالدة.

---

١ ـ مجموعة الاحصاء الأولي، المجلد (١)، ص ١١٢.

يجيب أحد كتاب القصص العلمية الخيالية رداً على السؤال: لماذا يلقي بعض كبار العلماء أنفسهم في عناء كتابة القصص العلمية الخيالية، فيقول:

«العلم يستند إلى الخيال وإلى قوة اللا شعور، أكثر من استناده إلى العقل والشعور».

الحق معه. فعامة الناس يتخيلون مظهر العلماء بزيهم الأبيض في داخل المختبرات، بينما تحققت أغلبية الاكتشافات العلمية خارج المختبرات وبعيداً عن الأجواء الرسمية، وعن لا وعي.

ومن نماذج هذا الموضوع هو اكتشاف قانون «النسبية» من قبل «انيشتاين» حيث راودته الفكرة على حين غرة وبأسلوب الإشراق والإيحاء الذهني، فأقبل بعد ذلك انيشتاين على إثبات هذه الفرضية.

يقول انيشتاين: «لقد قمعنا عالم اللا وعي (اللا شعور) والإشراق منذ قرون وقمنا بتثمين الوعي والعقلانية البحتة. لقد تناسينا أن الوعي يعرض جزءاً بسيطاً فقط من مجال امكانياتنا واستعداداتنا».

فالانسان في الوعي يكون أسيراً لهذا وذاك ومكبلاً بقيود «هنا» و «الآن». إنه بوعيه يشطب ذاته. فحواجز المصالح وسدود المنافع والرسميات تمنع انطلاق قواه الكامنة ومواهبه المفعمة بالإبداع. بينما في اللا وعي، تنعدم الحدود والقيود. كل شيء هنالك مسطح وبسيط، هنالك مخازن الخبرات، والذكريات والأفكار والخيالات والآمال والاحتياجات التي تحوّل الإنسان، فيما لو تمت اعادة صياغتها بنية التعالي، تحوّله مما «هو عليه» إلى «ما ينبغي ان يكون».

يقول الفيلسوف الكبير فيتجنشتاين بجديّة:

«يجب التزام الصمت فيما يرتبط بما يمكن التحدث عنه».

ولكنه يقول آسفاً: «ما لا يقال فقط هو الحائز على قيمة حقيقية».

في مجال الاستدلال ولغة المنطق والعلم، المطلوب هو التزام الصمت فيما

يخص ما لا يقال. أما الشعراء فإنهم يتحدثون دوماً عن «المستترات»، يرفعون اللثام عن وجه الوقائع وعن «الذوات البشرية» لتنكشف الاسرار ويزول عن الانسان الكسل والاكتئاب. يرى الشعراء أن العالم صُنع من النسيان وأنهم بالمكاشفة المتواصلة الأليمة إنما يتذكرونه ويجلون عن المنسيات غبار الزمن ليضفوا على الذكريات هوية ويحولون دون تفسلج الذهن:

والشعراء عندما يصففون الألفاظ إلى جانب بعض غريزياً إنما يخلقون أجواءاً غريبة. إنها غير مألوفة حتى بالنسبة إليهم.

يقول أحد الكتاب والشخصيات المعروفة في عالم السينما في حوار نشر معه: ليس من الواضح متى يحدث الإبداع. فكل إبداع حصيلة أعوام وربما يكون عن لا وعي أيضاً»[١]. فمستودع اللا وعي (اللا شعور) كنز عظيم واعادة تفحصه في أكثر الظروف تحرراً يؤدي إلى انتاج أعمق الأفكار، وأنقى الخبرات وأصعب الطموحات والتمنيات تحققاً. يكفي أن ننتزع «الذات» من قبضة حجاب «الذات» ونزيح نقاب «الوعي التلقائي» عن وجه «وعي الروح» المستتر. عندئذ تنطلق دفعة واحدة أمواج الفكر السيّال المسترسل هادرة ثائرة بعد توقفها خلف أسوار «الوعي» وكأنه سد ضخم. وتشهد نظرة الإنسان إلى نفسه وإلى عالم الوجود التغيير. هذا هو الحدث العظيم الذي يشهده «موراي» بعد لقاء «يونغ» فقال: «بعد هذا الحدث شعرت أن سداً ضخماً رفع من أمام عيني وأنني التحقت بعالم جديد»[٢].

---

١ ـ بهرام بيضائي، مجلة (بنيان)، العدد ٢٩، ١٨ ـ ٣ ـ ٢٠٠١.

٢ ـ انظر كتاب: «نظريات علم نفس الشخصية، د. سياسي، نظرية موراي.

«لا، للجدّيّة»

جوليا كامرون:

«التعارض في أمر إحياء الابداع وشفائه يكمن في انه لابد أن لا نكـون جادين في التعاطي بجد مع أنفسنا».

وعن «شيلر»:

«الانسان لا يكون إنساناً إلّا أثناء اللعب».

***

حقاً إنّ «أكثر لحظات الحياة جدية تتولد عن أكثر اللـحظات نأيـاً عـن الجدية». فإبداعات واكتشافات كبار العلماء الجادة لم تتبلور إلّا خلال أكثر نشاطاتهم نأياً عن الجدية أي خلال ألعابهم الذهنية التلقائية.

فالانسان عندما يتجرد تماماً عن «الجدية» بإمكانه أن يشعر، بجد، بهويته وقابلياته. وبعبارة موجزة يمكن القول ان أكثر قمم الابداعات والمآثر العلمية والفنية البشرية مدينة للجدية في «اللعب واللهو».

فعلى سبيل المثال: تمخض عن لعب فيثاغورس بالخيط وأسلاك مختلفة الطول، اكتشافات النوطات الموسيقية والعلاقة بين نسبة الاعداد واكتشاف قوانين الرياضيات.

ولهو ارخميدس في الحمام العام (٢٨٧ ـ ٢١٢ ما قبل الميلاد) ودخـوله

إلى خزان المياه وجلوسه فيه لمشاهدة ارتفاع ماء الخزان إثر ذلك أثمر توصله فجأة إلى استنتاج عظيم (قانون الوزن النوعي والكثافة النوعية).

وإلتهاء غاليلو (١٥٦٤ ـ ١٦٤٢) بإملاء نظراته المتفحصة للمصباح الزيتي المتدلي من سقف كنيسة «بيزا» أدى إلى اكتشاف قانون «البندول».

ولهو «نيوتن» (١٦٤٢ ـ ١٧٢٧) في يوم من أيام الصيف الجميلة تحت شجرة تفاح أخذ بيده لاكتشاف قانون «الجاذبية» إثر مشاهدته سقوط تفاحة من الشجرة وتكوّن ذلك السؤال التاريخي في ذهنه.

ولهو «تشارلز داروين» (١٨٠٩ ـ ١٨٨٢) خلال الرحلة الترويحية التي قام بها على ظهر سفينة شراعية قديمة باسم «بيجل» ومشاهدته تنوع النباتات في مختلف بقاع الأرض أرشدته إلى الالتفات لسر «التكامل».

ولهو «فراده» (١٨٣١) بقرص نحاسي كان يديره بين قطبي مغناطيس نعلي الشكل أفرز اكتشاف التيار الكهربائي:

ولهو «غريغور مندل (١٨٢٢ ـ ١٨٨٤) في حديقة داره (بزراعة الحمص) أنتج اكتشاف «قانون الوراثة».

ولهو «دوموقراطيوس» بقطرات الماء أدى إلى تحقيق أحد أعظم المنجزات العلمية البشرية وهو اكتشاف الذرة.

ولهو «جان بياجه» مع ابنه واكتشافه «ديمومة الشيء»[1] ومن ثم توصله إلى مراحل نمو الذكاء عند الأطفال أحدث نهضة أساسية في نظرة الكبار إلى الأطفال.

«ما هو «اللعب واللهو»؟ وأي لعب ولهو يؤدي دوراً حاسماً في تبلور الإبداع؟

اللهو هو حالة التقاء الواقع مع الخيال. هو شعورنا، ونحن نمارس لعبة

---

١ ـ انظر «حوارات حرة مع جان بياجه».

«اللص والشرطي» ونرى عجز الشخص الذي أطبق عينيه عن ان يعثر علينا، اننا حققنا أحد تمنيات الانسان القديمة في إحرازه القدرة على أن يغيب عن الأنظار. وفي لعبة «الذئب والغراب» يحقق عدم الإمساك بنا طموحنا في التحليق وتعذر الاستحواذ علينا، وفي حالة وقوعنا في قبضة الذئب! وتواصل وجودنا بعد ذلك، يتحقق لنا طموح عدم الفناء ونحن نرى اننا لم نعرض للأكل والفتك. اما في لعبة كرة القدم فإننا لو خسرنا اللعبة نتغلب على الخوف من الخسارة وفي حالة فوزنا فيها نشعر أننا حقاً قد كسبنا قضية الحياة. اللهو واللعب أجواء تتصل فيها الاحلام بحقيقة مؤقتة.

وهو كذلك حيز يتجاوز حدود الزمن والمكان. اللهو هو عالم الخيال وموعد بلا زمان لاتصال فم رضيع بثدي أمه، أي موعد يتسنى للرضيع فيه ان لا يتلقف ثدي أمه فقط في فمه بل وجودها بكله وقد صار هو الآخر أمه. ولما كانت الأم دنياه بأسرها من شأنه أن يشعر أنه يملك الدنيا كلها (1968 او Mahler).

اللهو هو نفس الظاهرة التي يدعو فيها الموسيقار مستمعيه ليرحلوا مع نوطاته إلى سهل بديع الجمال متناهي الأطراف. اللهو موقف يقترح فيه الرسام على محدثيه ان يستنبطوا الحب من الخوخ. هو نفس موقف الخطاط يلقي (بحبره بل الأفضل أن نقول بحبله) خطاب روح وتاريخ بلاده إلى أعماق الأسماع. هو نفس موقف النحات مثلاً وهو يقيم نصب «الشهيد في ساحة الحرب» فإنه لا يقبل بذلك على احياء مشاهد الحرب، الجبهات، البسالة، والقيادة بل يعزز ارتباطه الأبدي وكذلك ارتباطنا مع ملحمة «الشاهنامة»[1].

---

١ ـ ديوان شعر وملحمة للشاعر الايراني ابي القاسم الفردوسي، وهو سفر حكى فيه تاريخ وقصص وأساطير ايران منذ القديم وحتى دخول جيش المسلمين بلاد فارس.

كل هذه الابداعات الفنية تحدث في نفس الموقع الذي يجعل ميخائيل آنج (في لوحة الخلق)، إصبع الله متصلاً عنده بإنسانه، أي حيث نفخ الله روحه المبدعة في كل حد فاصل بين مكانين، بين هيكلين، بين ذهنين وبين مجالي الوعي واللا وعي»[١].

هكذا يقول «نيتشه» بتمثيل «لهوي» بديع: نضج الرجل في مرحلة الرشد ليس إلّا استعادة لجدية كان يتمتع بها في عهد الطفولة «أثناء اللعب».

ويقول «كومينيوس» حول «الجدية في اللعب واللهو» و «الألعاب والتسليات الجادة»:

«ينصبّ جهدي كله في أن أحول مهمة المدارس المقوّضة إلى لعب وتسلية. فالسلوك المنتهج مع الأطفال في المدارس يوحي بأنهم عبيد... لقد قلت مراراً، خفية وعلانية، إن هذا ليس هو الطريق ولكن لم يجد تحذيري أي نفع قط. فمنذ البداية قلت لابد من إقامة المعارض فقد علمتني خبراتي أنه لإزالة الترهل وإذكاء الذكاء لا سبيل أفضل من اللهو واللعب. ولكن قيل لي دَعَوناك لأداء مهام جادة وليس مثل هذه التسليات والمعارض الهزلية التي تتلاءم مع شأن قبائل الجزويت[٢]. كان جوابي إن نفس هذه التسليات سوف تنتهي إلى تحقيق أهداف جادة»[٣].

فإبداع أجمل وأنقى ترانيم الشعراء أيضاً كان في أكثر لحظات حياتهم انطلاقاً ولا جديّة ولا انتظاماً، أي عند انفلات الذهن من الأسوار الضيقة

---

١ ـ نقلاً عن مجلة (كلستانه)، العدد ٣٤، ص ٨١ و ٨٢.

٢ ـ هذا الكلام لمناوئي الجزويت يعرض إلى أي مدى قد ينتهي التزمت إلى إبداء حكم غير صحيح.

٣ ـ عن كتاب «نظرة إلى فلسفة التربية والتعليم»، د. عبد الحسين نقيب زاده، ص١١٢.

المفروضة حول العقل المألوف وردهات المنطق المعروفة، وتحليقها بانسيابية في أجواء المجرّات.

فالشاعر عندما يرتجز الشعر يجد نفسه على حال تنتزعه من الابتلاءات التعقلية والتحليلية وتعلقات الأكل والشرب والنوم والغضب والشهرة وهموم مأكل صيفه وملبس شتائه (وكأنه طفل يلاعب عالم الوجود). ولما كان قد تعلم فناً لهذه اللعبة وقد أضفى تفننه هذا سياقاً معقداً على تعبيره، (سمى حصيلة لعبه ولهوه «الفن»)، ولكن عمله في صلبه هو نفس فعل الطفل أثناء «اللعب»[1].

فكبار الشعراء والعرفاء هم أطفال حققوا ذواتهم فصار بإمكانهم إطلاق مشاعرهم ورؤاهم بنقاء وحميمية إزاء الواقع السيّال. وهذا الانطلاق يحدث في أكثر المواقف الروحية والنفسية انطلاقاً من الذات، أي اثناء «اللعب» حيث يتوفر له فرصة الإخصاب والإبداع.

فخلال اللهو واللعب يشعر الإنسان بذاته وبتوحد كيانه وبالنشاط والتنامي. وهذا التنامي يُسخّر قدرة الإنسان وقابلياته في سياق الانتاج والإبداع وحرية الفكر والعمل. هكذا يمكننا أن ندّعي ان: (الأكثر جدية من بين منتجات الانسان الثقافية والمادية ظهرت في أنأى لحظات حياته عن الجدية).

ولنفس هذا السبب يقول «كارل غوستاف يونغ» حول أهمية «دور اللعب» في ابداع الانسان:

نظام الخلق إنما يتقبل ما يستجد لا عن طريق العقل بل عن طريق اللهو الغريزي الذي يتفاعل باعتباره ضرورة باطنية. فالذهن المبدع يمارس

---

١ ـ «دنيا الشعراء، حوار حر ولكن...»، حسين شيخ الإسلام، شهرية الأطفال واليافعين، العدد (١٢)، ايلول عام ٢٠٠١، ص ٩٢ (تعريف شكلي للشعر بدلاً عن التعريف المضموني).

«اللهو» مع الموضوع الذي يستهويه[١].

يقال أن العالم انيشتاين كان يسأل نفسه دوماً: لماذا تتبادر أفكاري إليّ تحت رشاش الماء دوماً؟ هل هنالك سبب آخر سوى أن الذهن يمر بأكثر اللحظات انطلاقاً، لحظات يتجرد فيها تماماً عن الجدية وعن الانتظام والنشاط الجاد؟

١ ـ انظر «طريق الفنان»، جوليا كاميرون.

«لا، للطهر دون اختبار»

«لا ينال الانسان الجنة ما لم يجتاز الجحيم. وما لم يترك التدنسات وراء ظهره لا يذوق الطهر أبداً»[1].

عرض التلفزيون الايراني في شهر رمضان من عام ٢٠٠١ مسلسلاً يحمل عنوان «نوطات الطفولة»[2]. كان المسلسل يعرض قصة شخص مدمن اضطرت زوجته إلى الطلاق بسبب إدمانه. وكان ينبغي له التخلص من إدمانه لاستمالة زوجته. حبس نفسه في سرداب ببيت قديم لعلاج إدمانه. وبعد مضي شهر واجراء اختبارات الإدمان حمل نتيجة التحاليل وجاء بها إلى زوجته. ومع ذلك لم يُقنعها بالعودة إلى دارها لأنها لم تكتف بهذا الاختبار، فلم تكن واثقة من أن زوجها سوف لن يعود في المستقبل القريب لتعاطي هذه المواد الملعونة. ولتحقق الثقة بثباته على عدم تعاطيه لها وضعت خطة، بعثت وفقها قليلاً من الهيروين إلى غرفته التي يسكنها خلسة وهو في ظروف متأزمة حرجة حيث يأس من عودة زوجته المطلقة. وهي ظروف تقوي تحفز المدمن للعودة لتعاطي المخدرات من جديد. لقد أقبلت عائلة الزوجة على مثل هذا الاختبار العسير المضني للتوثق تماماً من أمره. ولكن من جهة

---

١ ـ يشير إلى ذلك الحديث: «الجنة محفوفة بالمكاره».

٢ ـ من اخراج السيدة «بريسا بخت آور».

أخرى انتشل الرجل نفسه في خضم هذه الأحداث المحفزة فتحاشىٰ تعاطي المخدرات، حتى في ظروف توفرها له وهو منفرد. تهيؤ ظروف الإدمان وتجنبه، التواجد في بيئة غير نزيهة والحفاظ على النزاهة، توفر ماء غزير ولكن الامتناع عن تناول حتى قطرة واحدة منه مع ذروة الشعور بالعطش: هذا هو فن الطهر وضمان ديمومته.

ما نال الرجل المدمن ثقة زوجته السابقة ورضاها للزواج ثانية منه إلّا بعد انتصاره في هذا الاختبار العسير. إلى جانب هذه الأحداث كان هنالك شخص آخر سجل بدوره ضمن هذه المجموعة مظهر الخبث والتحايل والكذب وإثارة الفتن. فكان وجوده أفضل أرضية اختبار وابتلاء الأشخاص في سياق حفاظهم على طهرهم وسط التدنسات.كان من تجليات الوسواس الشيطاني، والإنسان سوف لن يوثق بإيمانه ما لم يتغلب على الشيطان.

وهذه الإشارة بالذات كانت تمثل النواة المفهومية والمحور الاساس الذي يدور حوله خطاب المسلسل وهي أن نزاهة الانسان في الفراغ، أي عند غياب عوامل التلوث ومعززات الإثارات الشيطانية والمخاطر المتأتية منها، لا تتمتع بأية قيمة واقعية ومتثبتة بل يجب اثبات هذه النزاهة بتحدي التدنسات وفي أجواء تكتظ بالتحايل والمكائد. (فالشيطان في الحقيقة هو عامل التنزه ووسيلة لضمان ديمومة طهر الإنسان ونأيه عن التلوثات!) إننا سوف لن نحقق طهراً ونزاهة دائمية ما لم نُقْصِ عن أنفسنا الشيطان (رمز الدنس).

وفي آخر مشهد من المسلسل يظهر الشخص الضال (صهر الأسرة) في محل عمله الجديد (ورشة لغسل السيارات) يغسل سيارة يجلس فيها الرجل (المدمن المتنزه) وإلى جانبه زوجته التي عادت إليه. أي بعبارة أخرى كان نفس (الشخص الغير نزيه هو عامل طهر وتنزه الشخص المدمن!) إنه بدسه الهيروبين في غرفة الرجل سجل ثبات الزوج على عدم تعاطي المخدرات

رغم توفرها في متناول يده. فمدى ضمان نزاهته وثباته على عدم تعاطي المخدرات يتوقف على اتصاله بالتدنسات ومجانفته لها وثباته رغم توفر المحفزات والإثارات الملوثة. إذاً، الانسان لا يضمن دوام نزاهته دون اجتياز ردهات الدنس بسلام. والانسان المتنزه هو من يحفظ ساحته من الدنس رغم توافر التلوثات وإلّا فانه ليس من البراعة التحلي بالنزاهة في غياب التلوثات. ولا يصطلح على الشخص مؤمناً ما لم يكن له اتصال مع الشيطان. وليس من البراعة نيل ثواب الأعمال بعيداً عن أجواء الترغيب في ارتكاب الإثم. ولا دوام للأمان مع عدم وجود عوامل الخطر والخوف. وأخيراً فان «الالتزام بالتوحيد» في غياب وساوس الشرك يتجرد عن أية أبهة وأصالة حقيقية.

على هذا فإننا لا يمكن لنا أن نتأمل خيراً من تقوانا ونزاهتنا دون اجتياز الردهات الملتفة للاختبار والابتلاء الالهي باعتزاز وفخر[1].

---

١ ـ المسلسل التلفزيوني «وراء أسوار الاختبار الجامعي» لنفس المخرجة يحمل تقريباً نفس هذا المفهوم، عرض بأسلوب مغاير.

«لا، لكبح الجهل»

يقول «اوشو»:

«عدم المعرفة هو إدراك حقيقي».

***

«كل نصيب العابد هو شهوده لله من خلال المظاهر والحكم والتدابير. فمثل هذا النمط من التبصر والفكر العقلي مطلوب لرؤية نوره في القلوب. ولكن الذات سوف تبقى أبداً مستترة وراء حجاب الغيب المطلق. إذاً تحرر من علم يعارضه الجهل ومن معرفة تتنافر مع عدم المعرفة واستقر فيم هو كنه المعرفة».

العلم الذي يعارضه الجهل هو العلم الحَرفي والجهل الذي يتنافر مع العلم هو جهل الحَرف. فتحرر من قيود الحرف ليتحقق لك العلم الحقيقي الذي لا يعارضه شيء وهو العلم الإلهي. وتَغَرب عن جهل لا يعارضه شيء وهو الجهل العرفاني.

فمتى ما توصلت لعلم لا يعارضه شيء وتغربت عن جهل لا يتعارض مع شيء فأنت لم تعد من أهل السماء ولا الأرض»[1].

---

١ ـ انظر «رأيت الله»، مصطفى محمود.

ويروى عن الشاعر مولوي انه قال:

«لو كان العلم كله عند الانسان دون الجهل، ليحترقن الانسان ولا يلبثن. فالجهل، إذاً، صار مطلوباً لأنه وسيلة إلى المعرفة»[١].

لولا الجهل لما توفرت للمعرفة مؤونتها، ولولا الوعي باللا وعي لم تتولد الدوافع والاندفاعات للكشف عما غدا معلوماً في النهاية. إذاً، فليحيا الجهل، الجهل الفاعل في الاكتشاف وتوسيع المعرفة!

إذاً، ما يحفز الذهن هو الاندفاع وعدم المعرفة والاستفسار. فأغنى الأذهان أفرغها.

وانطلاقاً من ذلك نقرأ تعاليم «داو»:

هنالك أسرار، لأنه هنالك جهل

فكل معرفة، إنما هي جهل آخر

إذا، كل معرفة تعمق تلك الأسرار

وطريق داو هو التخلية، عندما يكون هنالك الكثير[٢].

إذاً، سر التعلم الحقيقي يكمن في هذه الحقيقة الخفية وهي أن التعليم يعني استخراج مكنونات باطن الإنسان، إنها عملية صقل واستخراج وليس استزادة وخزن!

والجهل هنا فراغ عظيم لابتلاع العلم. وهو عامل مشهي لاكتساب المعرفة وإغناء الذهن. هكذا يمكن القول أنه كلما ازداد علم الشخص يتسع مجال جهله وكلما غدا حيز الذهن أكثر فراغاً، ازدادت امكانية الاستقطاب والاكتساب.

---

١ ـ عن كتاب «فيه وما فيه».

٢ ـ انظر «داو والارتباطات» لري غريك.

«لا، للتشجيع والعقاب»

(التشجيع والعقاب الخارجيين يكبحان الاندفاع والخوف الباطنيين)[1].

لابد ان تكون تربية الإنسان أساساً في غنى عن التشجيع والعقاب الخارجيين بل تستند على الاندفاع والخوف الباطنيين. وعندما ينساق الكلام عن التشجيع والعقاب فإنه يكون فقط باعتبارهما محفزات مساعدة وآليات لإثارة وتعزيز الاندفاع والخوف الذاتي المنشأ وليس آليتين مكبلتين شرطيتين تُفرضان من الخارج. وهذا الأمر يتسم في مجال التربية الأخلاقية والدينية بجدية وتعمق أكبر، لأن «الفعل الأخلاقي» و «الدافع الديني» يجب ان يكونا متجردين عن التوقعات المادية الآلية، ومتحررين من عوامل الضبط الخارجي. فلا يكون للتربية الأخلاقية والدينية عمق ورحابة إلّا إذا كانتا فطريتين، ذاتيتي الانطلاق، باطنيتي المنشأ، أصيلتين ونابعتين من الضمير الواعي للشخص. من هنا يقول الفيلسوف الكبير «امانويل كانت»:

«لو كنا نرغب في ترسيخ الأخلاق لابد أن نستغني عن العقاب. فالأخلاق لبدرجة من القدسية والعظمة تفرض عدم الهبوط بها إلى مستوى الضبط. فعن طريق الضبط (التشجيع والعقاب) نكوّن عادات تتقلص قواها بمرور

---

١ ـ عن كتاب «التربية الصادمة، تربية الدلال وافرازاتها الخفية» للمؤلف.

الزمن»[١].

من هنا ينوّه كانت إلى انه: (يجب ان لا يقوم أساس التربية الأخلاقية على التشجيع والعقاب). فهذا الاجراء يهبط بالقيم الأخلاقية إلى مستوى تصنيفها إلى مستساغ وغير مستساغ. فالطفل الذي يختار الفعل الحسن لمكافأته المستساغة ينفر منه بعد التحاقه بعالم الكبار والتفاته إلى أن العمل الحسن قد ينتهي إلى نتائج غير مستساغة وغير نافعة. وينساق بعد ذلك نحو طريق ينال فيها إثابة يرتضيها[٢].

على هذا، لا يبلغ الانسان، اخلاقياً، قمة الأخلاق إلّا إذا أدى الفعل الأخلاقي بعيداً عن آليات الضبط الخارجي (التشجيع والعقاب).

تأكيد «كانت» الى هذا الحد على فهم وتقبل المبادئ، حتى فيما يخص تربية الأطفال، إنما هو لايضاح المفهوم الحقيقي للتربية الأخلاقية ومكانة الأخلاق، وهو الاهتمام الحر وعن وعي بالقيم المعنوية واختلافه مع «القسر»، الإجبار، التعويد والقولبة (بفعل التشجيع أو العقاب)، وكلها تستند إلى المحفزات والمحددات الخارجية. وله نفس هذا التأكيد فيما يخص الدين والتعليم الديني، فيقول: «يجب أن ننظر إلى الدين من منطلق ارتباطه بأخلاق الإنسان وكماله المعنوي وليس من خلال تعاليم تقوم على أساس تكوين الشعور بالخوف (العقاب) أو توقع المكافأة»[٣].

وتتحامل سيلفيا ريم في كتاب «الأطفال محدودو التعلم» على هذه الأساليب في بحث آثار تمادي الأبوين في تشجيع واسناد أبنائهما، وترى أن الابوين اللذين يقدمان لابنائهما المكافأة والتشجيع إزاء اي إقدام إيجابي

---

١ ـ نظرة إلى فلسفة التعليم والتربية، د. عبد الحسين نقيب زاده.

٢ ـ المصدر نفسه.

٣ ـ نظرة إلى فلسفة التعليم والتربية، نظرية كانت، ص ١٣٩ ـ ١٤١.

يصدر عنهم يحرمان الأطفال، في واقع الأمر، من النعم الباطنية ومن الثقة بالنفس. فالأطفال عندما يحققون مطاليبهم بسهولة يفقدون بعد ذلك قدرة التعلم وروح المثابرة فيتخبطون في متاهات اللا دافعية، لأنهم يُلقَنون بذلك أن يطلبوا فقط لا أن يبذلوا الجهد. إنهم يعتادون على تلقي المكافآت الخارجية إزاء كل إقدام فتنكفئ لديهم في النهاية اللهفة والاندفاع الباطنيين[١].

فنفس هذه الاجراءات الخارجية هي التي تقمع المحفزات الباطنية وتجعل الطفل متوقعاً تلقي الإثابات الخارجية بدلاً عن الاستناد إلى القوى الذاتية[٢].

---

١ ـ انظر كتاب «عندما تهبط درجات الأبناء الأذكياء»، سليفيا ريم.

٢ ـ لمزيد من الاطلاع حول هذا الموضوع انظر كتاب: «الوجه الآخر لنظام التربية والتعليم الانتظامي» للمؤلف.

«لا، للتعليم»

يقول «اوشو»: «لم يحاول الاساتيذ القدامى تعليم الناس شيئاً ما بل يعلمونهم برفق أن لا يعلموا».

***

جاء عن العالم في علوم المعرفة، الحيوان، الأحياء وكذلك علم نفس الأطفال «جان بياجه» في كتاب «حوارات حرة مع جان كلود برنجبيه»، قوله:

«عندما نعلّم الطفل شيئاً ما نمنع الطفل من اكتشافه وإبداعه بنفسه».

ويذكر عن الحكيم سقراط قوله قبل أكثر من ٢٣٠٠ سنة ما معناه ان (الهدف من التربية ليس عرض العلم بل توليد الحاجة للمعرفة واندفاع الاكتشاف والتساؤل).

من هنا، فإنه يبدو أن أغلبية أنظمة التعليم والتربية تمضي قدماً في طريق عكسي خلال عملية تعليم التلاميذ، وقد اتضح بجلاء نتيجة ذلك أيضاً. فكل هذا التهرب من المدارس واللا أبالاة إزاء الدروس والدراسة ينشأ من نفس هذه الحالة العكسية في المناهج التعليمية.

ويتعمق «بيستالوتسي» أيضاً في تمحيص المناهج الدارجة أكثر من غيره. فيرى انه لا طائل لمثل هذه التعليمات بالنسبة للمتعلمين بل صدماتها

وضررها أكثر بكثير من انعدام الثقافة. إنه يقول: «من يتصور أن معرفة الألفاظ علم، يكون أبعد إلى العلم من الإنسان المتوحش.. ولنفخ الروح في التعليم يجب بادئاً إزالة هذا الخطأ الأساسي وهو الاستخدام العابث للكلمات»[١].

من هنا، فان عرض الألفاظ بدلاً عن الأشياء نفسها، اي استخدام ألفاظ ومفاهيم لا تتوفر لها أية خلفية حسية وتجريبية عند الطفل، يعتبر عملية ليس من شأنها أن تعلم الطفل شيئاً ما بل نتاجها قمع الادراك. من هنا يجب أن لا نعلّم الطفل أي مفهوم قبل أن يحوز إدراكاً حسياً بشأنه بادئاً.

وانطلاقاً من هذا يقول «فرانسيس بيجن» وهو ينتقد أنظمة التعليم المدرسي:

«كل شيء في المدارس والاكاديميات والجامعات وما إليها من تشكيلات تهدف لنشر الثقافة وتنمية أشخاص مثقفين، يعارض تقدم العلم لأن الدروس والتمارين وضعت بحيث تجعل التفكير بأي شيء، خارج الإطار المألوف، أمراً في غاية الصعوبة».

لم يغدو أي شخص صاحب «شخصية» متألقة بتأثير العلم الانتظامي. ولم يتواصل أي تعلم عن طريق «التعليم الرسمي الانتظامي».

جاءت في كتاب «الزنيّة» حكاية، مروية عن النصوص القديمة، تثير التفكير والتأمل حول هذه الحقيقة الخفية، بتعبير مغاير، وهي:

زار «دوكو» الاستاذ وسأله: إنني أبحث عن الحقيقة. ففي أية مرحلة ذهنية أعلّم نفسي لأتوصل إلى الحقيقة؟

رد الاستاذ: ليس هنالك ذهن ليكون له مراحل، وليست هنالك حقيقة لتعلمها لنفسك.

قال التلميذ: لو لم يكن هنالك ذهن ننميه ولا حقيقة نتوصل إليها فَعَلامَ

---

١ ـ «نظرة إلى فلسفة التعليم والتربية»، ص ١٤٩.

جمّعت كل هؤلاء التلاميذ ليأخذوا عنك تعاليم الزنيّة» ويطلبوا منك التوجيه والإرشاد يومياً؟!

قال الاستاذ: ليس لي مجال على قدر شبر واحد فكيف يكون بإمكاني أن استجمع تلاميذي هاهنا. ولا لسان لي لأقدر على دعوتهم وتعليمهم.

تساءل «دوكو»: ايها الاستاذ، أنّى لك ان تكذب هكذا؟

أجاب الاستاذ: لا لسان لديّ لاتكلم مع الآخرين فكيف أقدر أن أكذب عليك؟

قال التلميذ مكتئباً: لا أفهم كلامك. لا أدرك ما تقصده.

قال الأستاذ: وأنا أيضاً لا أفهم كلامي!

وفي موقع آخر من نفس هذا الكتاب نقرأ:

سأل «ليه تان»، «لينغ تايو» عما يعنيه الحنان الذهني المتوحد الذي نقله «بوديدارما» وهو رمز الطبيعة الإنسانية، فاعترف «لينغ تايو» بجهله.

سأل «ليه تان»:

ـ قبل ان تصبح راهباً، ماذا كنت تمتهن؟

أجاب:

ـ راعي بقار.

ـ وكيف كنت ترعى البقار؟

ـ اصحبها صباحاً إلى الخارج وأعود بها مع سدول الظلام.

ـ جهلك عظيم حقاً.

هذه العبارة لاستاذ «الزنيّة» أرشدت التلميذ إلى «التيقظ».

في الحقيقة، يكفي توفر ظروف «تيقظ» الانسان لا «إيقاظ» الإنسان لتتولد ظروف التعلم حيث لا يمكن توفير خلفيات تعلمه دون تيقظه باطنياً وإثارة اندفاعاته الفطرية.

ولهذا يقول «ديفيد اوزبول»: يحدث التعلم الدال عندما يتأجج الدافع

المعرفي من الباطن. فبدون هذا الدافع يتحول كل تعليم إلى مانع يحول دون التعلم[١].

١ ـ انظر «علم نفس التربية»، د. علي أكبر سيف، مطبوعات «آگاه».

«لا، لتقصي الابتهاج»

يقول «مورتاي»:

«يفر الابتهاج منك ما دمت تطلبه»

***

يكتب «كريشنو مورتاي» في كتاب «اللا رضا المبدع»:

«يكون بامكانكم تحقيق الابتهاج الحقيقي عندما تتقصونه أي عندما لا تبذلون جهداً أو سعياً لتحقيق الابتهاج. عندئذ تكونون قد أبدعتم الابتهاج بنحو غامض وغير متوقع. فالابتهاج وليد النقاء والطهر، وليد حب الجمال والتطلعات الجميلة.

انتم تفقدون الابتهاج ما دمتم تتقصونه. ولن تتحقق لكمَ السعادة ما دمتم تحملون هواجسها. وسوف يوصد الأمان أبوابه بوجهكم ما دمتم تبحثون عن طرق اكتسابه.

فالابتهاج والسعادة نعمة تكتنفها الأسرار وشعور محفوف بالغموض، وعظمتها تكمن في تلقائيتها وتولدها باطنياً. فأي جهد وارادة قصديّة تهدف لايجادها إنما تسلبها حالتها المستقلة الذاتية.

والرضا وكذلك اللا رضا يتبعان برأي «كريشنو مورتاي» نفس هذا «القانون الغير مرئي» و «القاعدة المحفوفة بالأسرار». إنه يقول: «لا تهابوا اللا

رضا، بل تغذّوه».

(فاللا رضا هو ينبوع الرضا)! يتوجب على الإنسان أن يتمتع بشعور اللا رضا التام. ولكن إلى جانب الشعور بالابتهاج والشغف. لابد أن يكون غير راضٍ بكله ولكن ليس مع التشكي بل مع الحب والشغف والابتهاج.

فالابتهاج لا يتولد لديك ما دمت تخاف شخصاً أو شيئاً ما. ولكنك لولا تهاب بالفعل أي شيء، فانت صباح ذات يوم عندما تنهض من النوم وفيما انت تسير على قدميك منفرداً تلتفت إلى ان أموراً غريبة تحدث فجأة: حادثة غير مدعوة وغير مطلوبة أو متقصاة. يمكنك أن تسميها الحب، الحقيقة أو الابتهاج والرضا![1].

فالابتهاج والنشاط الباطني عملية غريزية، ذاتية الانطلاق واسترسالية. وأي محاولة واعية وقصدية ومدروسة لتحقيقه تشوش، بحد ذاتها، نمط السرور. فالسرور مثل التعجب ينبغي أن ينبثق من الباطن ومن خلفية تكوينية. فلو أردنا التظاهر بالتعجب قصدياً أو أن نولد التعجب فإننا بذلك نمنع التكون العظيم لظاهرة الانبهار والتعجب.

ولهذا السبب نفسه يقول «اوشو»: السرور والحزن، كلاهما من صنع الإنسان ولكن الابتهاج والشغف ليسا من صنع الإنسان. فالسرور يواجه الحزن ويواجه الفشل، النجاح والصمت، الصخب والحياة، الوفاة ولكن الابتهاج والضغف لا يواجههما شيء. انهما يظهران كهدايا ويتحتم على الانسان ان يتعلم كيف يتلقاهما. فالسلوك إلى الله طريق يتعلم الانسان خلاله كيف يكون متفتحاً ومستقبلاً وكيف يستضيف الله. فأنت عندما تكون مستعداً ومستقبلاً دون رهاب وقلق سوف يتوفر لك الابتهاج والشغف. (عن كتاب «السر» لاوشو)

---

١ ـ انظر «اللا رضا الإبداعي»، كريشنو مورتي.

من هنا، فإن الابتهاج وقبل أن يكون عملية اكتساب أو اختراع وإبداع فإنه عملية اكتشافية. لابد من استخراج الابتهاج من ينبوع القلب وليس المخ. وللتوصل إليه لابد من الاهتداء إليه لا صنعه، إنه تلقائي المجيء لا يُطلب. إذاً، أية محاولة وسعي إرادي وقصدي لتقصي الابتهاج، يتحول إلى خلافه أي الحزن والاكتئاب الباطنيين.

يقول الاستاذ:

ـ كثرة من الناس يخافون السعادة. فالرضا عن الحياة يعني بالنسبة لهم تغيير بعض العادات وفقدانهم الشعور بهويتهم.

إننا، غالباً نغضب عند ظهور المبرات، لا نتقبلها، لأننا لو فعلنا، يخيل إلينا أننا مدينون لله.

نفكر أنه «من الأفضل ان لا نجرع من كأس السعادة، لأنه لو فرغ سوف نعاني عناءاً كثيراً».

«لا، للتربية»

«كما أن الإنسان صار المشكلة الأساس في حياة الإنسان يمكن القول أن التربية هي المشكلة الأساس في تفعيل دور التربية. وهكذا «فرض التربية» إزاء التربي»[1].

***

يقول «ليوتولستوي»: «التعليم والتربية هي عملية تحكم شخص بشخص آخر لتنشئته باعتباره انساناً جيداً (بحسب رأي الآخرين). إذاً، التربية لا تعني إلّا مسخ الانسانية واستعمار وسوء استغلال الطفل نفسياً وعاطفياً». إنه يقول: «التعليم والتربية هما النزوع إلى الاستبداد الأخلاقي. صارت لديّ قناعة أن دافع اندفاع المربي (الراشد) لتربية الطفل هو غبطته لطهر الطفل وحريته ورغبة المربي في التمثل به، أي أن المربي يرغب، بعبارة أخرى، في استصغار الطفل[2].

ويقول المصلح الالماني الكبير «ارنست كريك» أيضاً: «الانسان يربي باسلوب عفوي اعتباطي والتربية لا تقوم على منهج ليخطط له شخص ما منذ

---

١ ـ عن كتاب «التربية، وما ليس بتربية!» للمؤلف.

٢ ـ نقلاً عن كتاب «دور علم النفس في التدريس»، روبرت بيلر.

البداية، ويكون بالامكان ضبطه حتى النهاية»[١].

إن هذا الكلام لدليل على الطابع السيال، والحر، والذاتي الانطلاق والحيوي لعملية تربية الإنسان الذي يكون قد حرر نفسه من كل تقولب، تصنّع وتأطّر. وقد يعود تنافر التربية مع الأطر المحددة مسبقاً ومع البرمجة والتخطيط التحاملي إلى وجود قطبين سياليين متغيري الخصائص، هما: المربي والمتربي يكتسبان على مر اللحظات، في حيز ميداني كما يعبر عنه الجشطالتيون (ذوو الاتجاه الكلي)، هوية جديدة.

وعلى هذا، فان التربية وباعتبارها «حقيقة سيالة وليست متصلبة» لا تتحدد بإطار ومنهج لا علاقة له مع ارادة شخص المتربي أو المربي. ولنفس هذا السبب كان «جان جاك روسو» يرى بالنظر للأوضاع السائدة في عهده، وخبراته التباعدية والتجديدية خلال تربيته الافتراضية لـ «أميل»، كان يرىٰ انه من غير الممكن تقريباً نجاح عملية التعليم والتربية بالاقتصار على اهتمام المربي وفاعلية حذاقته، فيقول:

«ما يمكننا أداؤه، كحد أقصى، عن طريق الإشراف والرعاية هو أن نقترب نوعاً ما إلى هذا الهدف. فتحقيقه بشكل كامل يتوقف على إقبال «الحظ».

اما «توماس كوهن» فانه يعرب في كتاب «البناء والنهضات العلمية» عن رأيه فيما يخص تنافر التعليم مع التقولبات الإرادية، فيكتب:

... مع هذا، يبدو أنه لا التفكير الإنمائي لفرويد ولا الاتجاه المعرفي لبياجه، استطاع ان يوفر الظروف المناسبة لانتاج نموذج عام وكلي. وهذا الأمر يوضح حقيقة أن الاتجاهات التعليمية والتربوية تتأثر في أغلبية الحالات بالالتزامات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية أكثر من النماذج

---

١ ـ انظر كتاب «التربية الطبيعية في مواجهة التربية التصنعية» للمؤلف، فصل التربية العفوية إزاء التربية القصدية».

والأطر العلمية المحددة مسبقاً.

رغم أن «توماس كوهن» يأسف لتنافر التعليم مع التقولب ولكن من مفهوم آخر وانطلاقاً من اتجاه ونظرة انسانية لا آلية، (يمكن أن يكون لعفوية عملية التربية مردود إيجابي وبناء أيضاً)، وهي نظرة ما وراء علمية وما وراء قالبية لعملية بناء الشخصية ولنظام نمو الانسان وماهية طبيعته السيّالة والحيوية.

«لا، للأمان المكتسب»

يقول جيدنز:

«الآمن هو من بإمكانه أن يشعر بالأمان إزاء ظروف اللا أمان».

***

«لو كان من المقرر ان تشهد حياتكم تطوراً أفضل، يتوجب ان تتقبلوا أحداثاً مباغتة، أن تتركوا خندقكم القديم، أن تتعاطوا مع أشخاص جدد، أن تتقصوا آراءاً وأفكاراً حديثة وأن تتقدموا في طرق غير معروفة. اي بتعبير آخر، (المجازفة بنيّة ارتقاء الذات) تتطلب المضي في ديار غير معروفة لها لغة مغايرة... فالتعارض الظاهري في الأمر هو اننا لو لا نتخلى عن كل ما يمنح الثقة والاستقرار والأمان، سوف لن يكون بمقدورنا أبداً أن نثق بالأصدقاء، وبالرفاق وبأي عمل أو مهنة توفر لنا مزايا خاصة. فالأمان الشخصي الحقيقي لا يتأتى من الخارج بل ينبثق من الباطن. فلو نتجنب المجازفة الإرادية لتحقيق نمو الشخصية، فإننا وفي ظروفنا الراهنة سوف نقع دون شك في الفخ أو سوف نلقي بأنفسنا، في نهاية المطاف، في متاهات الخطر دون أي استعداد مسبق».

ففي الحقيقة، «منح الأمان» يمنع «تقصي الأمان». ومن يهاب اللا أمان يعمّق جذور الشعور باللا أمان في نفسه، ومن لا يخاف اللا أمان يستبطن

الأمان في أعمق ثنايا وجوده. ومن لم يكتسب الأمان من الغير بل يبدعه بنفسه، بإمكانه ان يشعر بثقة راسخة وحيوية إزاء ديمومة أمانه. وإلّا فانه حتى مع توفر البيئة الآمنة ومقومات تحقق الأمان الخارجية، سوف يضمر على الدوام شعوراً باطنياً باللا أمان.

فالشعور باللا أمان هو عين الحياة. فرمز الحياة هو التمتع بالجرأة على العيش في ظروف اللا أمان. فكلما ازداد اللا أمان تطبعت الحياة بحيوية أكبر. فلا أمان مطلق إلّا للصخور. أما الانسان الحي فإنه يعيش حالة التحدي بين «الكينونة» و «الصيرورة» فالمسير من منطلق اللا أمان ينتهي دوماً إلى الأمان الراسخ. ولهذا نجد «كريشنو مورتاي» يقول في كتاب «التحرر من التعقل» فيما يخص التعارض بين منح الأمان وكبح الأمان:

> الشعور بالحاجة إلى الأمان البحت خلال الارتباطات يترشح عنه دون شك الحزن والغم والخوف. فالسعي من أجل تحقيق الأمان، هو بحد ذاته دعوة للا أمان. هل احسست حتى الآن، خلال أي من ارتباطاتك، بالأمان؟ أغلبيتنا نشعر بالحاجة إلى الأمان خلال علاقات الحب أي اننا بحاجة إلى أن نحب ونحظى بحب الآخرين لنا. ولكن.. هل سوف يتكون الحب ما دام كل منا يتقصى الأمان ويتابع طريقه ومنهجه الخاص؟

«لا، للاستنتاج»

يقول جريس:

«الاستنتاج حصيلة الأفكار المرهَقة والمتخلفة».

ويقول انيشتاين:

«عرض أية قضية أهم من النتيجة ومن حل القضية».

***

يرى السينمائي الكبير «ديفيد لينتش» ان: «الجاذبية الأبدية ومفهوم أي خطاب يتوقفان على مدى ما يكتنفه من اسرار وما يخفيه من غموض». ويرىٰ أنه لا فرق بين الموسيقى والسينما، فيقول: فكما اننا لا نضافر جهودنا لتحديد نمط وكيفية أية قطعة موسيقية ولا نسعى لفك أجزائها[1].. فإن الخطابات والحكايات الأخلاقية هي الأخرىٰ يجب ان تتسم بمثل هذه النظرة التفننية الحافلة بالغموض. فكلما ازداد اثر الخطاب خفاءاً واستتاراً كانت فاعليته في نفوس المخاطبين أكثر عمقاً ونفوذية ودواماً. على هذا، فإن أغلبية الانعكاسات النفسية المتثبتة تنبثق من لا وعي الانسان. ولهذا يجب

١ـ انظر صحيفة «إيران»، الملحق الخاص بالسينما والمسرح، حوار مع «ديفيد لينتش»، ١٥ـ١٢ـ٢٠٠١م.

أن لا نتقصى لها إيضاحات وتحليلات إضافية أو تباعدية وتكرار مرهق. وقد سادت العادة عند قراءة أية قصة أو حكاية، أن نتقصى لها على الفور نتيجة معينة أو تعريف ما.

فمجموعة من المربين أو الآباء والأمهات يهمهم أن يتحدث الأطفال بعد فراغهم من قراءة القصة، عن مدلولاتها الأخلاقية ليتوثقوا بأن القصة كانت تحمل لهم شيئاً ما أم لا؟ وهل أن الطفل تلقّى الخطاب المنظور بعد قراءة هذه القصة أم لا؟ ولكن ليست هنالك من حاجة لمثل هذا الاستجواب التحكمي بل يجب أن نمهله ليكشف عن خطاب الفلم أو القصة دون إيضاحات معروضة بل بتفعيل ذهنه ونفسه تلقائياً. فلو عرض هدف القصة بنحو مكشوف مرفق بالرياء والتظاهر فإنه يفقد أثره التربوي. فخطاب أي قصة مثل توفر الفيتامين في باطن الفاكهة حيث تختفي بداخلها وما إن تتم عملية الهضم حتى يظهر أثره في وجود الانسان وجسمه، فلا حاجة للتساؤل من متناوله أي الفيتامينات قد تناول أو ماذا أثمر في جسمه؟ فالتحدث عن هذا الأثر لا يزيده شيئاً بل يطرد في إخفات وهج أثره الطبيعي والباطني أيضاً.

الاستنتاج يؤدي إلى حصر الواقع السيال والفكر الحي جراء التقصي المتواصل في قوالب الذهن الجامد أي قبل أن يطلق الذهن قواه في مجال الخطاب يعتقل الخطاب نفسه في حيز الذهن.

فالاستنتاج بهذا المعنى يعني بالضبط حصر الخطاب داخل حدود فهم الذات وسلب الانسان فرصة إعادة الإبداع وإثمار ابتكارات جديدة.

يتحدث «اوشو» عن حدث ملفت جرىٰ خلال محاورته أحد اساتذة الجامعات، يرصد به الافرازات السلبية للاستنتاج خلال عملية التحقيق والأبحاث العلمية فيقول:

«زارني ذات يوم عالم نفساني برفقة بروفيسور جامعة (Jaipur). قال: إنني من رواد العلم وقد قررت أن أثبت حقيقة التناسخ بأسلوب علمي تحقيقي.

قلت له: أوَ تعلم ما هو التحقيق العلمي؟ أنه بحث علمي (Scientific inquiry). أي أنك لم تقرر شيئاً بادئاً. فأبواب البحث مفتوحة. أنت تقول الآن إنني عالم. ولكنك لست كذلك. وتقول: قررت أن اثبت حقيقة التناسخ بالطرق العلمية التحقيقية. فلو لم تكن اثبتها حتى الآن فكيف لك أن تتقبلها؟ ولو أثبتَها حتى الآن فما الذي تريد اثباته في الوقت الحالي؟

وما هي فائدة هذا التقصي عندئذ؟ أنت ما تعرف حقيقة التناسخ، فلا حاجة لك بالتحقيق. أو إنك لا تعرف حقيقة التناسخ، فكيف لك أن تقرر إثباتها منذ البداية.

إنه بحث متزمت وليس تحقيقاً.

فالتحقيق (Inquiry) يعني ان تمضي دون أي استنتاج؟ قد يكون صحيحاً وربما لا. قد يكون شيء آخر هو الصحيح. أنت تفتح أبوابك، لا غير. الحقيقة مهما تكون، أنت تسمح لها بعرض نفسها.

لقد قلت لذلك البروفيسور: «انت فقط هندوسي متزمت مسبقاً وتؤمن بالتناسخ. فبالضبط كما ينكر المسيحيون للتناسخ أنت تؤمن به. المسيحي أيضاً بإمكانه أن يبدأ «تحقيقاً علمياً» ليثبت عدم وجود التناسخ. هل سوف يكون ذلك أيضاً علمياً؟ إنه تحقيق مسيحي لا غير. إنها محاولة لاستغلال العلم من اجل اثبات تزمتك. تحقيقك هو تحقيق هندوسي فقط وليس تحقيقاً علمياً. والعالِم ليس له أن يكون هندوسياً. فليس للعالم إلّا أن يكون عالماً وبوسعه أن يتساءل ويجري التحقيقات فقط. والبحث يعني عدم التوصل إلى أي استنتاج أو تبني حكم مسبق. وهذا هو أساس جميع التحقيقات.

فأنت ليس بمقدورك اجراء البحث والتحقيق حول الله. بل تتحدد إمكانيتك بالتحقيق حول حقائق يمكن التوصل إليها: هذه الأشجار، هذه الصخور، هذه الانهار، هؤلاء الناس وانت نفسك يتعين عليك ولوجها وإلّا سوف لن تنال اسناد أي كتاب مقدس».

ما نقلناه لك بالتعبير الحكيم لـ «اوشو» يرصد الاكتشاف الارتجالي للحقيقة، بعيداً عن الصياغات والبنى الذهنية وهو ما يحرر الفكر وقابلية الحكم من أي حكم مسبق ومصنّع من ذي قبل، لتظهر الحقيقة كما هي بالفعل.

فكما يقول «جو آن جريس» بتعبير في غاية الروعة:

«إنك تضيع في اللحظة التي تطّلع فيها على نتيجة العمل»[١].

يا ترىٰ ماذا يعني جريس من خلال هذه العبارة المتعارضة الأجزاء؟ فكيف يصيبنا الاستنتاج وما نحرز من درجات نهائية بالضياع، وهل الاستنتاج إلّا إنهاء طريق وأسلوب توقف عن النشاط والحيوية؟

فمثل هذه الاستنتاجات تعتقل الذهن في زنزانة القوالب المحددة مسبقاً وتغلق «مجال» البحث في ردهات الأغراض والنوايا. وتزداد هذه التكبلات عندما نعتزم تنسيق هذه الاستنتاجات وفق أذواق المخاطبين وما يستهويهم ونريد أن نحدد مجال البحث بحدود الاستيعاب الذهني للمخاطبين. إذاً، يحسن أن نطلق عنان الكلام في مجال الذهن ونسلم لجام الفكر بأيدي المفكرين العقلاء.

---

١ ـ «طريق النسان»، جوليا كاميرون.

«لا، للتسابق والتنافس»

يقول «كريشنو مورتي»:
«لا يتحقق التعلم الواقعي إلّا عندما تتثبط روح التنافس».
ويؤكد «اجزوبري»:
«كل ما هو أصل، يستتر عن الأنظار»

***

اثناء بث مناجاة الإفطار من إحدى قنوات التلفاز خلال أحد أيام شهر رمضان المبارك دعا مذيع القناة المشاهدين للمشاركة في مسابقة معنوية هامة. اسم المسابقة، كان: «مسابقة المناجاة»! أعلن المذيع: سوف نقدم جائزة لمن يكتب أفضل، وأجمل وأنقى(!) دعاء يبعث به إلينا.

لو يتم الامعان بدقة كبيرة في هذا الطلب المتعارض في أجزائه، يتكون لدينا هذا السؤال وهو: هل يبقى ثمة مجال للنقاء والصدق؟

في الحقيقة، تعتبر القضايا المعنوية من أعمق وأنقى الحالات القدسية وأكثرها تعلقاً بالشخص. فلو أنجزت في أطار السباقات والتنافسات سيما عند تلقي المكافآت والإثابة الخارجية، سوف تعارض هدفها بنفسها. فمثل هذا السباق، المنجر تحت عنوان «مسابقة المناجاة» يُسير إلى مدى هيمنة الرؤية المادية والآلية على أكثر الحالات، الوجودية قدسية ومعنوية عند

الإنسان.

فكيف يمكن عرض أمر باطني، فاعلي ووجودي تتعمق جذوره في أعمق مستويات الفطرة خلال مسابقة وبتقديم الجوائز. بمثل هذا الاجراء كأننا نطلب من الأشخاص الاشتراك في سباق البكاء والعويل. ونعلن بأننا سوف نقدم جائزة أكبر للاشخاص الأكثر بكاء وعويلاً! أي أن نقول: كلما كان بكاؤكم على درجة أعلى من النقاء تحرزون جائزة أكبر!

فالطابع التفاعلي في الدين والمذهب والتوالدي الإنمائي في الدعاء والتضرع إنما يكمن في طبيعتها الباطنية وذاتية انطلاقها. فأي تشجيع وترغيب في إطار تقديم المثيرات والمحفزات الخارجية يسلبها أصالتها الطبيعية.

هل بالإمكان إرغام شخص ما أو حتى تشجيعه على أن يضمر الحب لأحد أو يُغرم بآخر؟ هل بالإمكان إجراء سباق إضمار الحب والحنان وأن نقول: من أولى حباً أكثر بالشيء الفلاني سوف يتلقى جائزة أكبر؟ وفي حالة تكوّن مثل هذا الحب وبمثل هذا الدافع، هل يمكن أن نسميه شغفاً نقياً؟ وعلى نفس هذه الوتيرة، هل يعرض الدعاء والمعنويات والخبرات الدينية في مزاد الماديات وسوق التصنع؟!

وإلى نفس هذا النوع تنتمي أغلبية السباقات الدينية والثقافية الجارية في المدارس أيضاً. ولنفس السبب تتضاءل آثارها الباطنية والمعنوية عند التلاميذ وتغدو أكثر تزعزعاً يوماً بعد يوم. وربما تؤدي التربية الدينية إلى التهرب من الدين أو التظاهر بالدين.

يقول «اوشو» في كتاب «السر» حول سلبيات وصدمات الأنظمة التعليمية:

«نظامكم التعليمي هذا، يعلم التنافس وينشئكم متطبعين بحب الجاه. فنظامكم التعليمي ليس إلّا خطة إعداد لخوض عالم زاخر بالتنافس

والتصارع: مُوقع الجميع فيه اعداءاً لبعض.

ولهذا تحول العالم إلى مصح للمجانين. ففي هذا العالم لا يتكوّن الحب. ففي هذه الدنيا العنيفة، الزاخرة بحب الجاه وبالتنافس، في دنيا يلوي فيه الكل رقاب البعض، كيف يمكن للحب أن يتكوّن في مثل هذه الأجواء.

تعليمكم بدائي للغاية، لأنه يقوم على أساس الخوف من: «لو أنني أحجم عن مواصلة الدراسة جيداً ولا أتمتع بمعلومات وفيرة، سوف يتعذر عليّ البقاء حياً في صراع الحياة هذا». هذا النظام التعليمي يفترض أن الحياة حلبة صراع.

رأيي في التعليم هو أنه يجب أن لا نفترض الحياة صراع من أجل البقاء بل نتلقى الحياة باعتبارها حفل ومأدبة استضافة. الحياة لا تتحدد بالتنافس بل فيها الابتهاج والسرور أيضاً. والتعليم يجب أن ينسّقكم ويعدّكم للغناء، والشعر، والموسيقى، والرسم وكل شيء يمكن الحصول عليه في هذه الدنيا. يجب أن يتم تطبيقكم وتنسيقكم مع الأشجار، والطيور، والسماء، والشمس والقمر.

التعليم يجب أن يعدّكم لتكونوا أنتم أنفسكم. والتعليم الحالي يعدّكم للتقليد فقط. يعلمكم كيف تتمثلون بالآخرين. وهذا سوء تعليم.

فالتعليم الواقعي يعلمكم أن تكونوا أنفسكم. أن تلتزموا بأصالتكم. فكل منكم شخص فريد من نوعه ولا يتمثل، ولم يتمثل ولن يتمثل بكم أحد قط. وهذا إجلال عظيم منحكم إياه الله وهذه أبهة وعظمة تتعلق بكم. انكم متميزون منفردون. لا تكونوا مقلدين، لا تكونوا نسخ كاربونية.

ولكن نظام تعليمكم هذا ينشئكم على أن تتطبعوا بالتقليد فقط. يجعلكم نسخاً كاربونية وينسف هيئتكم الاصيلة.

وللفظة التعليم معنيان إثنان كلاهما جميل. أحدهما معروف جداً رغم كونه غير عملي أبداً وهو «استخراج شيء ما من الانسان». التعليم يعني

استخراج ما تستبطنه في داخلك، استخراج ما في طور الكمون إلى طور الفعل كاستخراج الماء من البئر.

ولكن هذا ما لا ينجز عملياً. بل خلافاً لذلك يسكبون أنواع الأشياء في بواطنكم ولا يستخرجون منها شيئاً قط. يسكبون في بواطنكم مواد الجغرافيا، والتاريخ، والعلوم والرياضيات».

فنظام التعليم والتربية المُركِز على التنافس (لا على التزامل) يُنشئ الأطفال والناشئة منذ البداية على أن يتطبعوا بحب الجاه والتصارع. وفي ظل هذا النوع من التعليم تهيمن الفطنة الإنتهازية على التوادد والإنسانية. وفي مثل هذه الأنظمة يحل الحقد والنفور محل الحب والحميمية.

«لا، للحنان والإسناد»

يقول شكسبير:
«لستُ بدرجة من القساوة أن أكون رؤوفاً».

***

يقول المصلح الفرنسي الكبير «ألن»: «لو كنتم راغبين أن يتطبع أبناؤكم بالشعور بالمسؤولية والتحسن إزاء وظائفهم وواجباتهم، إجهدوا أن تسلكوا بلا أبالاة إزاء واجباتهم!». ويقول أيضاً: عندما يتم تدريس درس ما بلا أبالاة من قبل المعلم يكتسب الموضوع أهمية. فلا يعود بإمكان الطفل التحايل على نفسه ليتعلم معنىٰ «لابد» و «ضروري». وهذا هو بحد ذاته علم وفير[1].

فلو يسلك المعلم بلا أبالاة، يتقبل الطفل تلقائياً مسؤوليته عن نفسه. فعند شعور التلميذ بانه لا سند له إلّا نفسه يتعزز شعوره بالمسؤولية عن ذاته، فيضمر القلق إزاء واجباته. فأغلبية حالات اللا أبالاة، واللا نظام والاختلالات السلوكية عند الأطفال، بالنسبة لما يرتبط بواجباتهم، يكون ناشئاً بحد ذاته عن مواقف الاسناد والتدخل القيمومي للمعلمين والأبوين.

---

١ ـ انظر: «المصلحون العظام»، جان شاتو.

لأن الأطفال يعتادون على تفويض أمر أداء واجباتهم إلى الغير.

لو تلقى ابناؤنا اسنادنا على الدوام يحرمون من الاتكال على الذات والاكتفاء الذاتي. ولو أقبلنا على الاختيار وكذلك حل القضايا وإزالة عوائق التنامي التي تعترض درب الحياة، بدلاً عنهم، فإنهم سوف يتحولون إلى مخلوقات تتسم بالبلادة والتخلف والعجز، لا تقوىٰ على أي إبداع، مثابرة وحركة بناءة.

وكما تقول «سيلفيا ريم»:

تتكون الثقة بالنفس عند الطفل عندما يتقبل دون اسناد وتابعية مخاطر المحاولة والتحديات الخطيرة في حياته. ويختبر، بعد مواجهة هذه الأخطار، مهارة حل القضايا والاستقلالية في اتخاذ القرارات. إلّا أن مودة الأبوين تخنق حريته وتعرقل مجاهدته لتحدي المشاكل وكأنها طوق يلتف حول عنقه. هكذا ينشأ الأبناء، في ظل إسناد الأبوين، ذيليين فاقدي الثقة بالنفس[١].

فالمحبة والاسناد الزائدين يمثلان، في الحقيقة، عائقاً كبيراً يعرقل طريق تحقق الذات والاستقلال والزعامة الذاتية وتصديق الذات من قبل الطفل.

---

١ ـ نقلاً عن كتاب «عندما تهبط درجات أبنائنا الأذكياء».

«لا، لتحليل الأشخاص نفسياً»

يقول فوكو: «تعريف الموضوع، يعني بالضبط حصره».

***

عندما نقبل على معرفة شخص ما، فإننا في نفس الوقت نكون قد حصرناه. يقول «اميل شارتيه» في هذا الخصوص: «يجب ان تمتنع المدارس تماماً عن محاولة معرفة الاشخاص. فالنفسانيون الذين يخيل إليهم ان بإمكانهم معرفة الأشخاص يكونون خطيرين للغاية! فالاختبارات والامتحانات تجعلنا نضل فيما يتعلق بالقيم»[1].

فأي معرفة عن الأشخاص تحصرهم في إطار افتراضاتنا الذهنية. لأننا في هذه الحالة نشعر بهم ونقيمهم كما نعرفهم وهذا ضلال جسيم. فالأشخاص «هم» في الواقع بالضبط كما «نفهم» نحن، أو كما تعرضهم اختبارات ووسائل ادراكنا وليس كما هم في «واقع الحال».

فأي شخص يحتفظ بأصالته، أو بتعبير أفضل، ما دمنا لم نجعله بعد تابعاً لأذواقنا وأذهاننا، فانه يصير إلى ذاته بشكل أفضل. فتوقعاتنا من الآخرين تنبثق من ذهنيتنا المعرفية عنهم وتجدهم يحاولون أن يتطابقوا مع ما نتوقعه

---

١ ـ المصلحون العظام، جان شاتو.

منهم. وهذا يعني استعباد روح ونفس الأشخاص باسم علم النفس وعلم الانسان.

إننا، غالباً، نحدد للآخرين صورة «تخيلية ذاتية» خلال ما يشبه عملية استنساخ الآخرين عما نستبطن من الصور الذهنية هذه. من هنا، فإن معرفة الآخرين تتحدد بحسب تخيلاتنا الذهنية أكثر من انبثاقها من واقعهم الوجودي.

عند التعرف على أي شيء أو أي شخص يدمج الإنسان الموضوع المنظور مع مزيج من تصوراته وانطباعاته وبناه الفكرية الشخصية. ونفس هذه الممزوجات اللا واعية والغير مباشرة تفرض هالة من الانحراف الفكري إزاء الحقيقة في مجال معرفة الإنسان. وهذا الامتزاج والاتجاه الخاطئ يظهر في إطار تحليل الوضع النفسي للأشخاص أكثر من أي مجال آخر. وهذا ما لا يساعد في تعرف الأشخاص على بعض فقط بل في اغترابهم عن بعض.

«لا، للتشخص»

يقول «فريدريك برلس»:
أكثر الناس ثراءاً وبنائية وإبداعاً هو مَن لا يمتلك طبيعة متميزة».

***

لاستزادة موضوعنا المتجاهَل وضوحاً ودقة، نعرض هنا كلاماً مباشراً لأوشو جاء في كتاب «السر» حيث يقول:

«الشخصية من صنع الانسان والمعرفة أمر إلهي. فالانسان العارف لا يتسم بالشخصية أبداً. إنه يفتقد الشخصية تماماً، فلا حاجة له بها. الشخصية شيء ضعيف للغاية. الانسان الواعي يعيش بمعرفته، ومعرفته هي شخصيته. إنه في غنى عن الاستناد إلى شيء آخر. إنه يعيش بنور باطنه ويبدي انعكاساً على مر اللحظات. فلا يتكون سلوكه بفعل عادات سابقة ومائتة تسمى الشخصية. إنه يسلك تلقائياً وعلى مر اللحظات بما ينسجم مع حاجته وظروفه. إنه واع. ليس لديه قرار مسبق بما يفعل أو ما لا يفعل.

الشخصية تعني هذا، لا غير. نظام البتّ فيما أفعل وما لا أفعل، ايجاد انعكاس عفوي في الذات والتطبع بميكانيكية الفعل، الشخصية تعني هذا.

عندما تصدر الإهانة عن شخص ما، فإن صاحب الشخصية لديه جواب جاهز، أما صاحب المعرفة فإنه لا يمتلك ردوداً جاهزة ومحددة مسبقاً. إنه لا

يتحمل العناء، إنه صاحب معرفة وله طابع مرآتي في ذاته. إنه يعكس الموقف ويبدي بالمقابل سلوكاً ينسجم مع الموقف. فسلوكه يتحدد بحسب نباهته في تلك اللحظة. وسلوكه لا ينبثق من الماضي. لا يتأتىٰ من ذاكرته ولا ينبع من ذهنه. سلوكه يتكون في نفس اللحظة. إنه سلوك حديث مثل ندى الصبح. في سلوكه جمال ووقار. كل من سلوكياته يتسم بالوقار.

الانسان صاحب الشخصية بشع، إنه غامض ومتخلف. إنه يعيش في الماضي. إنه يعيش مع عاداته. إنه خلق شيئاً يسمى «العادات الحميدة». ولكن ما حاجتك إلى العادات؟ إنك تحتاج إلى العادات لو تعذر عليك الاعتماد على نباهتك. وفي غير هذه الحالة، تكون في غنى عن العادات. بإمكانك ان تعتمد على معرفتك دوماً. تعلم أنك صاحب معرفة وأنك واعٍ ومتنبه. إذاً، ما حاجتك إلى الاستعداد المسبق؟ لا حاجة لك إليه. فحاجتك في كل لحظة، مهما تكون، تجدها في نفسك.

لقد استبدل المجتمع المعرفة بالشخصية. الأطفال مخلوقات في منتهى الوعي. إنهم على قدر أكبر من النباهة قياساً إلى أي مرحلة زمنية أخرىٰ. بمقدورك أن ترقب الأطفال. ولهذا السبب نفسه يتمتعون بكل هذا النشاط والحيوية. إنهم مفعمون بالنشاط. فإلى أين ينتهي أمر كل هذا النشاط؟

وانظر إلى أصحاب الشخصية! لك أن تشاهد دوماً نوعاً من التشوش في عيونهم. لا تجد بريقاً في عيونهم لن ترىٰ ذكاءاً ينبثق منها. والأطفال متيقظون. لأنهم لما تتغشاهم بعد طبقات الأغبرة. لما يلجوا بعد مصنعاً يسمىٰ «التربية والتعليم». لما يتثقفوا بعد. مازالوا متوحشين وما زالوا يتمتعون بعد بحرية الحيوانات الوحشية وبسذاجتها وابتهاجها. وأفعالهم تتكون على مر اللحظات».

وفي هذا الخصوص يقول مؤسس مدرسة العلاج الجشطالتي «فريدريك

برلس»، بوضوح: «إذاً، ربما يكون تعارضاً ان أقول: إن أغنى الناس وأكثرهم بنائية وإبداعاً هو من لا يمتلك طبيعة متميزة (شخصية)»[١].

١ ـ عن «العلاج الجشطالتي»، فريدريك برلس.

«لا، للعيش دون تعارض»

يقول الفيلسوف الفرنسي «لوسينغ»: «لا يكون الانسان قوياً إلّا إذا اتسمت خصائصه بحالات تعارض واضحة لا حصر لها». ويردف قائلاً: والانسان القوي يربط تلك التعارضات مع بعض في إطار تركيب حيوي. فرقي الحياة وكمالها لا يكون في خلوها من التناقضات وانعدام التعارضات فيها بل في مدى ما تتضمنه من أضداد وفي حدّة ما تعترضها من أزمات وتحديات مؤلمة.

ويقول «هيجل»: لا يُعثر على الحقيقة في قضية ما أو في نقيضها بل ينبغي أن يتم تقصيها في تركيب حديث وتعايشي بين الأضداد.

إذاً، على قدر تفاعل مجال حياة الإنسان في ظل الأضداد والتعارضات يزداد نضج الانسان وقدرته على مواجهة هذه الأضداد أكثر فأكثر.

ويقول «جيل دلوز» و «فيلكس كاتاري» في كتاب «الفكر الترابطي» (المجتمع المترابط): لابد من الحفاظ على الفوارق والاختلافات (وليس إزالتها). فبحسب الفكر الحديث، وهو فكر كلي الاتجاه، تُكتسب قابلية الحركة في الشبكة بالاستناد إلى حوار القوى. يتضمن هذا النمط من الاتجاه الفكري درجة كبيرة من الاستيعاب لتحمل الاختلافات.

فالتعارضات فأس حاد يُحدث التصدعات في وجود الانسان وحياته الرتيبة. لتتفتح من باطنه انبثاقات وعروق من الفكر والإبداع والتنوع

واستيعاب الغير.

ولو يمكننا التحكم بوعي بهذه التناقضات والتعارضات، فسوف تغدو بحد ذاتها ينبوع نباهتنا ودعامة تنامي وجودنا. أما إذا افتقدنا القدرة على التغلب عليها فسوف تأتي علينا بالتشوش والاضطراب باعتبارها قوى هدامة لمنظومة شخصيتنا ونظامنا الفكري. إذاً، بدلاً عن إزالة التناقضات والتهرب من تعارضات الحياة، لابد من اكتشاف أسلوب مسايرتها وتركيبها مع بعض والتحكم بها واضفاء المفهوم عليها، في أنفسنا. فعظمة كبار الشخصيات تكمن في أسلوبهم في دمج ومجانسة الأضداد والتعارضات المترسخة في وجودهم.

فالحياة دون التعارضات، مرفقة بموت تدريجي حيث تتوقف خلالها جميع الأعمال الحيوية عن النشاط والمواجهة والتنامي والبناء. وفي الحياة دون التعارضات تتحول روح الإنسان إلى بركة ساكنة للمظاهر الآسنة. ولكن، لابد من التنويه فوراً إلى أن للتعارضات والتناقضات في الحياة إرتباطاً مناسباً مع قابلية الشخص واستعداده للتكيف والتوافق. ولو لم يتم هذا الارتباط بنحو متوازن فسوف تظهر بوضوح آثاره الهدامة والمَرضية.

«لا، للبرمجة»

يقول «برندا اولانه»: إنك ترى ان التخيل يتطلب أحوال وأوضاع خاصة ـ استلقاء طويل وبابتهاج ـ وقضاء الوقت دون أي عمل وبرمجة.

***

«دار التوليد لا تعمل؛ تمنع الولادة في غير الوقت الرسمي للدوام! دار التوليد وجميع المؤسسات الطبية في منطقة... تقدم خدماتها الطبية خلال ساعات الدوام الرسمي فقط»[1].

هذا ما جاء في إحدى الصحف.. ولكن العبارتين تبدوان على قدر من الهزلية والتهكم، الا أن الواقع هو ان الكثير من برامجنا ومناهجنا في حقل التربية تخضع لمثل هذا النمط دون أن نلتفت إلى هزليتها.

فمجموعة انعكاسات الإنسان وعواطفه، ومنها: الحب والمودة، الايمان والالتزام بالدين، الصداقة، الحنان والحميمية، الأخلاق والمعنويات، كلها من النوع الفكري المتولد عن قوة الغريزة الكامنة في وجود الانسان. وأي تخطيط وقولبة تهدف لتكوين هذه الحالات أو تنسيقها من خلال التعليم والحصص الدراسية لا يؤدي إلى تحجيم هذه القيم فقط بل يُفسد ماهيتها

---

١ ـ صحيفة ايران، العدد الصادر بتاريخ ١٣ ـ ٥ ـ ١٩٩٩.

الطبيعية وأصالتها الوجودية.

«فالسيرة السيالة التي تشهدها حياة الأشخاص إنما تتكون من مجموعة مسارات أعمالهم الاعتباطية. فجميع الناس ينجزون، خلال لحظات إبداء انعكاساتهم الحياتية، أعمالاً تبتدع في نفس تلك اللحظات. والشعور المبدع عند الانسان إزاء المواقف الخارجية الحرجة يظهر من خلال أعماله الاعتباطية (دون تخطيط مسبق). إذاً، الإبداع والاكتشاف والاختراع تعتبر حصيلة الفكر الاعتباطي[١]. ولا يمكن التخطيط لما يخص العواطف والمشاعر وفق قواعد وقوانين خاصة أو تحديد أطر وقوالب خاصة لها.

يقول «باولو كويلو»:

كنت أسير برفقة زوجتي على الساحل، عندما سمعنا فجأة فتاة شابة تقول لأخرى بأسلوب إقناعي: لقد خططت هكذا لحياتي...

استغرقت في التفكير. هل يا ترىٰ عملت هذه الفتاة حساباً للوقائع التي تحدث. في أوقات لا تتوقعها (أبداً)؟ وهل تفكر (أبداً) أن الله قد يحدد برنامجاً مغايراً وعلى قدر أكبر من الروعة؟ وهل تحمل على محمل الجد فرضية كون تدخل الآخرين في برامج الله وخططه، هو تطفل على آراء وخطط أفضل؟

ونحن نجد حتى النبي عيسى ابن مريم يتساءل من نفس هذا المنطلق هل بامكان أي شخص كان، أن يضيف شيئاً ما على ماضيه؟

اننا نلتزم بأسطورة شخصية لمواصلة العيش ولكن هذه الاسطورة تبرز في هذا المكان وفي هذا الزمن بالتحديد ولا دور لها في خططنا المستقبلية. وكل ما سوى ذلك هراء لا غير[٢].

---

١ ـ السلوك الروحي عند الممثل»، مهدي أرجمند، ص ٥٨.

٢ ـ «المكاتيب»، باولو كويلو.

فالمناهج المحددة مسبقاً هي قلاع دامسة تضيق الخناق على رحابة الذهن والعمليات الدافعية والعاطفية عند الإنسان. فبدلاً أن تتسير بحسب الاتجاه السيال في وجود الإنسان، يرضخ وجود الانسان عينه للمناهج الخارجية المتقولبة!

يقول «باولو كويلو».

«كلنا نشعر بالقلق إزاء التطبيق»، ازاء أداء الأعمال وحل المشاكل وتلبية حاجات الآخرين. ونجهد دوماً لوضع خطة ما أو التوصل لاستنتاج آخر او اكتشاف شيء آخر».

وفي خضم هذه الوقائع لا يحدث أي شيء غير صحيح، مهما كان. هكذا نصنع العالم ونغيّره. ولكن فعل الدعاء هو الآخر جزء من الحياة.

قد يمثل التوقف، التهرب من الذات، المثول أمام الكون، الانحناء إجلالاً، عدم الطلب، عدم التفكير وحتى الشكر إزاء أمرٍ ما، قد تمثل الخبرات الدافئة الوحيدة لحب يحيط بنا. ففي هذه اللحظات ربما تظهر دموع غير متوقعة، دموع لا تتساقط حزناً بل فرحاً.

هل يا ترىٰ يمكن اعتقال هذه الانعكاسات الحرة، الإبداعية والسيالة، المنبثقة من أعماق وجود الإنسان بعيداً عن أي إطار معين أو نقاب داخل زنزانات المناهج المحددة مسبقاً والعقود المدروسة؟

وفيما لو كان العلماء والفنانون في العالم بأسره يخططون منذ البداية على نفس الوتيرة الحديثة، هل كانت الفرصة تسنح لظهور مآثر ابداعهم ومفاخر انتاجاتهم الرائعة؟

يتضمن كتاب «تنمية القابلية العامة للابداع والابتكار» لاسبورن، نماذج عديدة حول دور الحظ والصدفة في ظهور ابتكارات الانسان وابداعاته. إنه يرىٰ أن البوادر الأصلية لإبداعات الزمن قد أثبتت أنها لم تظهر قط وفق برنامج مدروس. فاكتشاف «البنسلين» من قبل الكساندر فلمينغ، واكتشاف

الراديوم من قبل مدام كوري، واختراع الكهرباء من قبل أديسون والحديد من ولاية مينوسيتي باميركا من قبل الأخوة السبعة «مريت» في سلسلة جبال «مسابي» واكتشاف البكتريا من قبل روبرت كوخ ومئات النماذج الأخرى، كلها نشأت من إقبال الحظ أو الصدفة أو حتى أخطاء عفوية. ولم تنجز أي منها قط وفق مناهج مسبقة.

فذهن الإنسان، في الحقيقة، سيّال فكيف يمكن تحديد قالب وإطار متصلب لأي واقع سيّال؟.

وأهم وأخطر خطأ يرتكب في مجال الفكر والثقافة والعمليات الذهنية والعاطفية هو أن نحاول التخطيط لهذه البنى السيّالة وقولبتها بنحو منتظم في هيئة منتوجات ثقافية وفنية.

ولهذا السبب نفسه يعارض عالم الاجتماع «بارسونز» أي تخطيط في مجال الفكر والثقافة ويرى أنه لا يمكن أساساً التخطيط فيما يخص المنتوجات الثقافية، إلّا أنه لا مانع فيه في حقل الصناعات الثقافية الفاعلة في تطوير الأدوات الالكترونية والوسائل الاعلامية والصناعية[١].

١ ـ انظر «الفكر النظري في علم الاجتماع»، وليام اكسيرمور.

«لا، لاضطهاد الألفاظ»

يقول الحكيم الكبير «كنفوسيوس»: «أكبر تعسف في العالم وهو أم جميع المظالم، هو اضطهاد الألفاظ». فالألفاظ فيما لو لم تستخدم بشكل صحيح تؤدي إلى طمر الأفكار وتحريف الحقائق وقلب الواقع. وهل هنالك ظلم أكبر من هذا!

وباولو كويلو هو الآخر يقول:

«إن السلاح الفتاك الأكثر رعباً جُبناً مما نجح الانسان في اختراعها هو (الكلمة)».

فالكلمات والاسلحة النارية تترك على الأقل دماً يوحي باستخدامها، والقنابل تنسف الدور والطرق، والسموم يمكن الكشف عنها. أما الكلمات المسمومة لا يمكن إماطة اللثام عنها.

يقول الحكماء: من شأن الكلمة أن تُبيد دون أن تترك أثراً يلوح إليها، يتم بها إشراط الأطفال لسنين من قبل أبويهم. يُنتقد الرجال عن سوء فهم وتعرض النساء دوماً أزواجهن للإبادة بالألفاظ وينفي بها المؤمنين عن ساحة الدين أشخاص يعتبرون أنفسهم صدى الله. فانظروا هل تستخدمون هذه الأسلحة؟ أم هل يستخدم الآخرون هذه الأسلحة

إزاءكم؟[١].

الألفاظ عظام ضحايا التاريخ، الألفاظ في اعتقال هيمنة المفاهيم المحددة والمفاهيم كذلك مكبلة في زنزانة فهم الأشخاص.

١ ـ المكاتيب.

«لا، للتطبع بالعادات»

يعرض الفلم السينمائي «الانعتاق من سجن شاوشانك»[1] مجريات حياة سجناء حُكموا بالسجن لفترات طويلة. ومجموعة منهم أطلق سراحهم بعد قضاء (٤٠ ـ ٥٠) سنة في السجن مما آلَ إلى تطبعهم بآداب وضوابط السجن. وبعد تحررهم من السجن ودخول المدينة يجهدون للتمتع بمطمحهم القديم وهو الحرية. ولكنهم بعد تعودهم خلال (٤٠ ـ ٥٠) سنة على بيئة السجن وظروفه يتعذر عليهم مواصلة العيش في بيئة حرة. وبعد فترة من الزمن يطالبون بإلحاح بالعودة إلى نفس ذلك السجن. ويفكرون ثانية في ارتكاب مخالفات قانونية أو جرائم ليتحقق لهم أملهم وهو العيش في بيئة السجن.

يُعرض خلال الفلم مشهد يتعلق بما بعد الإفراج عن بطل الفلم وقد تم توظيفه في مبيعات عامة. إنه ولتطبعه بعادات السجن يطلب الإذن من مدير المبيعات قبل كل مرة ينوي فيها ارتياد المرافق الصحية. فيقول له مدير المبيعات أن لا حاجة له بالاستئذان لمثل هذا الأمر. ولكن السجين المفرج عنه يقول متوسلاً:

«سيدي، جرّبت عدة مرات فلم أنجح. لقد تعوّدت أن استأذن المسؤولين

---

١ ـ Shaw Shank Redemption، إخراج فرانك درابانت (١٩٩٤).

عني لمثل هذا الأمر، وإلّا فإنني سوف أعاني من صعاب».

إنه في الواقع يعجز عن قضاء حاجته ما لم يستأذن للقيام بهذا الأمر! إنه تعوَّد على ذلك. وقد صار هذا التعوُّد جزءاً من انعكاساته الإرادية الثانوية.

هذه الأحداث الرمزية التي تم إعادة فبركتها من خلال التصاوير المرئية انما تدل على أعمق مستويات صدمات «التعوُّد» على فكر الإنسان وسلوكه. حيث يتسبب «التعوُّد» في إشراط أكثر انعكاسات الانسان غريزة وبدائية، وخضوعها لتأثير ظروف البيئة والعادات المشروطة. فالتطبع والتعوُّد والاستئناس القسري بمجموعة من السلوكيات والظروف الاجتماعية يؤدي إلى تحول الهوية الانسانية إلى هوية حيوانية مما يجعل الارادة والنباهة، وهما من الخصائص المميزة للإنسان عن الحيوان، ضحايا للعادات المتقولبة والمترسخة عند الشخص.

ويقول «ريتشارد كرولي»: «عندما تتكون العادة، تصعب مواجهتها ولكن عندما يرغمنا نفس هذا التعوُّد على إبداء سلوك جديد أو اتخاذ قرارات جديدة وأداء انتقاءات جديدة، نتنبه إلى أن هذا التعوُّد لا يستحق أي اهتمام».

وجاء في أحد الأمثال القديمة:

«القرد الطاعن في السن لا يدخل يديه في ثمرة جوز الهند».

صيادو القردة في الهند يلجأون إلى حفر ثغرة صغيرة في ثمرة جوز الهند ثم يضعون موزاً في الثغرة ويدفنون أصل الثمرة في التراب فيدخل القرد يديه إلى الثغرة للإمساك بالموز ولكنه يعجز بعد ذلك عن إخراج يده لأن قبضته الممسكة بالموز أكبر من الثغرة وهو من جهة أخرى غير مستعد للتخلي عن الموز. فبينما القرد يخوض معركة غير معقولة تشغله عما يجري حوله يتعرض للصيد أخيراً.

نفس هذه الأحداث تجري في حياتنا أيضاً. فشعورنا بضرورة الحصول على أشياء مختلفة في الحياة يعتقلنا في زنزانة هذه الأشياء. اننا في الحقيقة

لا نفطن إلى أن فقدان بعض الأشياء أفضل من فقدانها جميعاً.

نقع في الفخ ولكننا في تلك الظروف لا نتغاضى عما استحوذنا عليه فنبرر ذلك بأنه من صلب تعقلنا، ولكننا (في قرارة أنفسنا نقول:) نعلم ان هذا السلوك هو نوع من البلادة.

«لا، للتطبيع الديني»

ـ «استتار الدين لإثارة دافع اكتشافه، هو الأكثر اكتنافاً للأسرار من بين أساليب تقصي الدين»[1].

فكما يتعارض رفد البئر بالماء (بدلاً من تفعيل انبثاق الماء فيها) مع فعل انتاج الماء فيها (أي انبثاق الماء من باطنها)، فإن التطبيع الديني هو الآخر عملية خارجية تنجز في سياق التربية ويتعارض مع تقصي الدين باعتباره عملية فطرية باطنية.

من جهة، يقال أن الدين والالتزام به أمر فطري أودعه الله سبحانه وتعالىٰ في باطن الإنسان. ويكفي توفر الظروف البيئية والعوامل التربوية المناسبة لتفعيله. من جهة أخرىٰ يتعارض ما ينجز باسم المناهج والاجراءات التربوية والتعليم مع مبدأ فطرية الدين. فمناهج التربية الدينية الدارجة هي في الحقيقة تتطبع غالباً بعدم فطريتها وانبثاقها من آراء استعارية وتصنّعية إزاء الدين. فلو لوحظ جفاف بئر ما، لا يتوجب رفدها بالمياه من مصادر خارجية بل حفر المنافذ والينابيع الجيّاشة، لاسيما الخفية، المرتبطة بالبئر انجازاً لعملية «تقصي المياه» بدلاً عن «الرفد بالمياه» و «انتاج الماء» بدلاً عن «سكب الماء».

كان أحد الاساتذة المسنين يسرد دوماً هذه الحكاية للتلاميذ الغير جادين:

---

١ ـ انظر كتاب: «الاتجاه الرمزي في التربية الدينية» للمؤلف.

«ذات ليلة توجه رجل بصير، بعد لقاء صديق له، إلى الدار. فقال لصديقه: اعطني مصباحك لأضيئ به دربي.

سأله صديقه: ولماذا تريد أن تصحب مصباحاً؟ إنك لن تبصر به بشكل أفضل.

أجاب البصير: كلا، ربما لا، ولكن الآخرين سوف يروننني بشكل أفضل فلا يصطدمون معي. قدم الصديق فانوسه إلى الرجل البصير وكان مصنوعاً من عود الخيزران والورق، تتوسطه شمعة. خرج الرجل البصير يحمل الفانوس ولم يتقدم إلّا بضع خطوات، حتى تناهى إليه: تق! صدى اصطدامه بشخص ما. اغتاظ البصير بشدة وقال :

ـ ألاترى هذا الفانوس؟ لماذا لا تمعن النظر؟

تساءل الشخص: فانوس؟ فلماذا لم تضئ شمعته؟

إذاً، لو لم يكن هنالك لاقط باطني ولا ترسل البصيرة جذورها في الأعماق، يكون الأمر كما يقول الشاعر شمس التبريزي: «لمّا كنت لاترى المصباح فماذا ترىٰ بالمصباح».

فالتعليم الديني هو بحد ذاته عائق للتربية الدينية. حيث أن «العلم هو الحجاب الأكبر» في مثل هذه الأنواع من المناهج التعليمية. فالالتزام بالدين عملية باطنية الانبثاق وليس منتوجاً خارجي الصنع. أي انه يمكن القول أن: «تقصي الدين» ليس إلّا إماطة الحجب عن درة الدين المودعة في ذات الإنسان.

من هنا، فإن أي تطبيع ديني ونقل المحفوظات والمعلومات دون أخذ الجذور الفطرية بالحسبان يمنع بحد ذاته اكتشاف الدين ويمثل عائقاً إزاء إعادة تكوين الدافع الديني عند الإنسان.

وقد يمكننا إيضاح الفارق بين «تعليم الدين» (التطبيع الديني) مع «تقصي الدين» من خلال ما نقرأه عن جبران خليل جبران في كتاب «النبي» موضحاً

مفهوم «التعليم»، حيث يقول:

«ثم قال له معلم: هات لنا كلمة في التعليم.

فقال: ما من رجل يستطيع أن يعلن لكم شيئاً غير ما هو مستقر في فجر معرفتكم وأنتم غافلون عنه.

أما المعلم الذي يسير في ظل الهيكل محاطاً بأتباعه ومريديه، فهو لا يعطي شيئاً من حكمته، بل إنما يعطي من إيمانه وعطفه ومحبته.

لأنه إذا كان بالحقيقة حكيماً، فإنه لا يأمركم أن تدخلوا بيت حكمته بل يقودكم بالأحرى إلى عتبة فكركم وحكمتكم.

فإن الفلكي يستطيع أن يقصّ عليكم شيئاً من معرفته لنظام السماء، ولكنه لا يقدر أن يعطيكم معرفته.

والموسيقي يستطيع أن ينشدكم أجمل ما في العالم من الأناشيد والأنغام، ولكنه لا يستطيع أن يمنحكم الأذن التي تضبط النظام في النغم ولا الصوت الذي يوجِد الألفة في الألحان.

والرياضي النابغ في ضبط الأرقام يستطيع أن يوضح لكم عدد الموازين والمقاييس وخصائص كل منها، ولكنه لا يستطيع أن يمنحكم معرفته.

لأن الرجل لا يقدر أن يعير جناحي تخيله وعين شهوده لغيره.

وكما أن لكل منكم مقاماً منفرداً في معرفة الله إياه، هكذا يجب عليه أن يكون منفرداً في معرفته لله وفي إدراكه لأسرار الأرض».

إذاً، ما يتفاعل في ازدهار الالتزام الديني من الباطن هو توفير الظروف المناسبة للشعور بهذه الحاجة عن طريق الشهود والتخيل بلغة الفطرة وفي إطار الخبرات الباطنية. أما إذا تم تلقي الدين باعتباره منتوجاً خارجياً وبضاعة تجارية فعندئذ لا يبقى للإيمان القلبي أي أثر ودور في حياة الإنسان.

«لا، لإخفاء العيوب»

يقول متى: «تزايد العيوب يتأتى من إخفائها».

***

يقول متى: (ليس المهم التطبع بالعيب حتى لو لم تبذل الجهود للتغلب عليه، ولكن إخفاء العيب أمر سيئ. فمن لا يقدر أن يكشف عن نفسه كما هي يُعرّض نفسه للصدمات أما من يُظهر نفسه على غير ما هي يُعرِّض الآخرين للصدمات)[1].

فإخفاء عيوب الذات، وليس عيوب الآخرين، يمنع التغلب عليها وبالطبع يمكن إمحاء بعض العيوب ولكن بعضها لا يمكن إمحاؤه بل يجب التكيف معه. فالتكيف مع عيوب الذات خطره أقل من تجاهلها. فالصعاب تظهر منذ أن نتجاهل عيوبنا أو نستند إلى الآليات الدفاعية لتبريرها أو ننتحل على مرأى الآخرين دوراً مغايراً لما نحن عليه بالفعل من أجل التستر على تلك العيوب. وجميع الحالات الثلاث تمنع ان نتقبل أنفسنا ونعرضها على ما هي عليه. بينما لا يمكننا التغلب على العيوب والانعتاق من التقوقع على الذات إلّا بتقبل الذات وعيوبها.

---

١ ـ «آراء متى»، برتولت برشت.

إذاً، من يتمتع بشهامة تقبل العيوب والتغلب عليها يستحق النجاح في ضبط النفس وتنمية الذات.

«لا، للتنظيم»

يقول «غاوس»:

«أكثر قوانين الطبيعة نظاماً هو قانون الصدفة (اللانظام)».

***

ويقول الفيلسوف الشرقي الكبير «كريشنو مورتي»:

«النظام برأيي شيء قبيح، فالنظام لا يثمر الإبداع فحسب بل أنه هدام أيضاً. ولكن هذا لا يعني مطلوبية الفوغاء وأداء النشاطات الهدامة. فالشخص المتمتع بالحب لا يُنجز كل ما يروق له. فالحب هو الوحيد يؤدي إلى أداء الأعمال الصالحة. ما يجعل العالم منتظماً هو الحب. فدعوا الحب يفعل ما يشاء.

فلو كنت تتمتع بالحب، لا حاجة لك إلى النظام. فالحب يضفي على الشخص، الإدراك الإبداعي للذات. من هنا، فإنه يحث الانسان نحو الوحدة والتوحد. فلتحقيق كليته لا حاجة لوجود أي من أنواع النظام، فكل ما ننجزه هو جيد حقاً وما هو جميل حقاً ننجزه بكل وجودنا[1].

ويقول «أرتور كستلر» في كتاب فعل الإبداع

---

١ ـ انظر: «اللا رضا المبدع»، كريشنو مورتي.

(The act of Creation) «إن الاكتشافات والاختراعات والابداعات، سواء التي شهدها حقل العلم أو حقل الفن، ظهرت وبشكل ملحوظ، «غير منتظمة» واعتباطية وغير متوقعة.

كل هذه الأمور تذكرنا بحكاية سر نديب (Serendip). والحكاية تسرد قصة امراء ثلاثة يقصدون جزيرة سر نديب (الديار الموعودة) للحصول على أشياء مختلفة. ومع أنهم، جميعاً، لم يوفّقوا في أداء مهماتهم المحددة قط ولكنهم عادوا محملين باكتشافات وخبرات رائعة. أي أن أغلبية اكتشافات الانسان واختراعاته لم تُنجز بالاستناد إلى الأساليب المنتظمة بل بشكل اعتباطي، وعابر، (ودون برنامج أو نيّة وقصد مسبق).

فكبح النظام يؤدي إلى تحطيم الأطر المُكبِّلة وإقصاء العادات وإطلاق الذهن وتحريره من القوالب والبُنى الثابتة المتصلبة. فالذهن الغير منتظم ذهن مبدع ومبتكر فيما لو اتسم بالأصالة والحيوية والسيالية.

ويقول الرسام والنحات الاسباني «بابلو بيكاسو» (١٨٨١ ـ ١٩٧٣) أيضاً[١]:

«إنني أنوي عرض ما توصلت إليه لا ما كنت أتقصاه».

في هذا المجال من الموضوع نذكر إحدى النظريات الفلسفية حول النظام المنبثق ذاتياً، حيث تبين الهوة العميقة بين النظام الخارجي والنظام الباطني. تحذرنا هذه النظرية من تقبل النظام الخارجي. والفلسفة السياسية للفيلسوف النمساوي المعروف «فون هايك» استندت إلى اتجاه «كانت». حيث اتبع هايك «كانت» في فكره الذي ينص على أننا لا نقدر على معرفة الأشياء كما هي، وأن النظام الذي نتوصل إليه من خلال خبراتنا أو حتى تجاربنا الحسية إنما هو حصيلة نشاط ذهننا الإبداعي لا مما نستوحيه من العالم خلال ظرف

---

١ ـ عن كتاب «الفنانون يتحدثون عن الفن».

ما.

ففكرة «النظام الاجتماعي المنبثق ذاتياً» هو أحد المحاور الاساسية التي تتركز حولها أفكار «هايك». يرى «هايك» ان: «بنية النشاطات الإنسانية تعرض نفسها على الدوام للجرح والإصلاح، وتتفاعل من خلال نفس هذه الجروح والاصلاحات وتكييف الذات مع ملايين الظروف التي لا تتضح معالمها في كليتها لأي أحد».

فالنظام المنبثق ذاتياً لم يتم التخطيط له ولم يُثمره تأمل واع بل ينبثق تلقائياً في الحياة الاجتماعية. فالنظام الاجتماعي المنبثق ذاتياً بامكانه ان يستغل المعرفة المتقطعة (معرفة توزعت بين ملايين الأشخاص) بنحو يعجز عنه النظام المبرمج ذو الاتجاه الكلي. ربما تكون الصور البايولوجية في مسيرة التكامل الداروينية أقرب مثال للأذهان حول النظام المنبثق ذاتياً.

ومن خصائص الأنظمة المنبثقة ذاتياً أن نوعاً من القانونية والالتزام بالضوابط يبرر في سلوكيات أعضائها، ولكن ربما دون التفات منهم لتلك الضوابط أو حتى دون توفر إمكانية استيعابها في وجودهم.

ومن الأمثلة الأخرىٰ في هذا المجال هي «اللغة» فاللغة دون شك نظام يتحكم فيها، يسمى «قواعد اللغة»، إلّا أن المتحدثين بها يستخدمون اللغة قبل تعرفهم على القواعد بكثير.

يرى «هايك»: ان المجتمع الذي يرغب في التقدم لابد له أن يكون مجتمعاً حراً قائماً على أساس نظام منبثق ذاتياً. لأن التقدم قوامه «عدم امكانية التنبؤ بالفعل الإنساني». فمعطيات العلوم الاجتماعية ليست كالمعطيات الطبيعية، التي تتسم خصائصها فيما يتعلق بالعقيدة والادراك بالثبات الراسخ وعدم التغير. بل أنها تتكون بالفعل وإلى حد بعيد من نفس آرائنا وأحكامنا.

ويقول عن نمط مواجهتنا لقضايا العلوم الاجتماعية: أقصى ما يمكننا معرفته عن العمليات الاجتماعية هي تخطيطات تجريدية. فالتفاصيل

المحسوسة في الحياة الاجتماعية لا يمكن التنبؤ بها عموماً.

في الحقيقة رغم امكانية وجود سياسة قانونية معينة فيما يتعلق بالمؤسسات الاقتصادية في أي مجتمع حر إلّا أن وجود شيء، باعتباره سياسة اقتصادية بمعناها الدارج في أيامنا هذه، أمر متعذر.

نلاحظ أن تقصي النظام في غضون تشويش النظام يذكرنا بنفس مفهوم تقصي التوازن بحسب نظام بياجه حيث يرى أن إعادة الاتزان هي حصيلة تشوش التوازنات المتزعزعة السابقة. فالأنظمة الثابتة هي الأخرىٰ حصيلة تشوش النظام وتحطم الأطر المتزعزعة السابقة.

فالذهن والفكر المتحرران، على هذا النحو، من الأطر المحددة للنظام، سوف يشهدان تقصي النظام من قبل الذات.

«لا، للذيلية»

الزجّال عندما يضمر حبّاً كبيراً لحمام ما يقص جناحيه كي لا يبتعد عنه ويكون منصاعاً إليه. وبعض الأبوين الرؤوفين المتمادين في إسناد الأبناء ينزلون بأبنائهم نفس هذه البلية المهيبة في إطار ما يسمونه حباً وتربية وإسناداً خلال ارتباطهم بهم. فكما يقول الأديب جبران خليل جبران:

«إن أولادكم ليسوا أولاداً لكم

إنهم أبناء وبنات الحياة المشتاقة إلى نفسها. بكم يأتون إلى العالَم ولكن ليس منكم.

ومع أنهم يعيشون معكم فهم ليسوا ملكاً لكم.

ثم يردف قائلاً:

أنتم تستطيعون أن تمنحوهم محبتكم، ولكنكم لا تقدرون أن تغرسوا فيهم بذور أفكاركم، لأن لهم أفكاراً خاصة بهم.

وفي طاقتكم أن تصنعوا المساكن لأجسادهم.

ولكن نفوسهم لا تقطن في مساكنكم.

فهي تقطن في مسكن الغد، الذي لا تستطيعون أن تزوروه ولا في أحلامكم.

وأن لكم أن تجاهدوا لكي تصيروا مثلهم.

ولكنكم عبثاً تحاولون أن تجعلوهم مثلكم.

لأن الحياة لا ترجع إلى الوراء، ولا تلذ لها الإقامة في منزل الأمس.

أنتم الأقواس وأولادكم سهام حيّة قد رمت بها الحياة عن أقواسكم.

فإن رامي السهام ينظر العلامة المنصوبة على طريق اللا نهاية. فيلويكم بقدرته لكي تكون سهامه سريعة بعيدة المدى.

لذلك فليكن التواؤكم بين يدي رامي السهام الحكيم لأجل المسرة والغبطة.

لأنه كما يحبّ السهم الذي يطير من قوسه، هكذا يحبّ القوس التي تثبت بين يديه»[١].

ولكن يبدو أن الأوراق قد اختلطت على الأبوين فحلت ملكية الأبناء محل تربية الأبناء وفرض الذيلية عليهم محل إطلاق عنانهم.

ولكن يا ترى كيف يحرم الأبوان الرؤوفان أبناءهما، وبقساوة عفوية، من فرصة التمتع بأي نوع من الاسناد الذاتي، الاتكال على النفس والزعامة الذاتية؟

كيف يغفل مثل هؤلاء الأبوين عن المردودات الخفية والصادمة لحالات إسنادهم المثبطة مما يؤول بهم إلى تنشئة أبناء يراوحون على مدار الساعة بين قطبي الذيلية والعجز؟

---

١ ـ انظر كتاب «النبي»، جبران خليل جبران.

«لا، للمبادرة»

يقول لاوتزو (Leo Tzu):
«إعمل بلا عمل فأكثر الأعمال موضوعية، اللا عمل!»[1].

***

يقول لاوتزو: إعمل بلا عمل؛ بلا جهد، اعمل دون أداء عمل، ولكن كيف يمكن أداء شيء ما دون عمل؟

«التاوية» من المدارس الدينية، الفلسفية والعرفانية العامة في الفكر الصيني القديم. وتتبنى فكرة أن الانسان المقدس والكامل هو الإنسان الذي يحجم عن المبادرة ليخوض عملية «اصلاح الذات». يقول تاو:

«دع ضميرك يهيم بحرية (في الأرض) وببساطة (في مكان ينعدم فيه أي مؤشر لوجود التعلقات). وبالهدوء أضف الاتحاد على قواك الحيوية، وتابع المسيرة الطبيعية لكل الأشياء دون أن تسمح لنفسك بالتدخل فيها. عندئذ تتسير الدنيا بأسرها تلقائياً».

ومؤدى هذه العبارات هي أنه مع تحقق الانسان الكامل بما في الكلمة من معنى، تتسير شؤون الدنيا تلقائياً. وغني عن الايضاح أن هذا لا يتضمن سوى

---

١ ـ انظر كتاب «التاوي تشنج» (Taote ching) أو «مصنّف لاوتزو»، لاوتزو.

تفعيل مبدأ «الاحجام عن المبادرة».

وما أروع عبارات الشاعر الايراني «سهراب سپهري» حيث يقول:

«ليس مسؤوليتنا أن نعرف سر الورد

ربما يكون واجبنا أن نعوم في سحر الورد».

من هنا يعتبر لاوتزو «العلم دون فائدة» و «التحمل أمر عابث» و «الطلب ضار» و «العظمة والثروة لا قيمة لهما»! لأنها كلها أمور ينتقيها الإنسان ولا تتأتىٰ من مسيرتها الطبيعية. إنها، إذاً، «تصنّعية».

ويقول باولو كويلو: «لا تنسوا أن التوقف ضروري أحياناً وإلّا فسوف تُجرح أقدامنا وينحرف ذهننا ويقمع الإرهاق قدرتنا على التقصي.

وبحسب القوانين الجامعية، تقرر أن يقضي اساتذة الجامعات إزاء كل سبع سنوات عمل، سنة واحدة بعيداً عن أجواء الجامعة اعتباراً من يوم السبت من عام (٩٩). هكذا يتم التخلص من الرتابة وتتفتح أجواء مناسبة للمعارف الحديثة.

كان المزارعون القدماء يقسمون أراضيهم إلى سبعة أقسام يتركون إحداها كل عام دون زراعة لتتفاعل فيها ارادة الطبيعة وينمو فيها دون تدخل الإنسان الأعشاب المتطفلة والنباتات المتدنية وكل ما تقتضيه مشيئة الطبيعة. هكذا تشهد الأرض دورة عمل في ذاتها ويكون بإمكانها تقبل البذور الزراعية في السنة القادمة.

ومن لا يتوقف إرادياً سوف تصيبه الحياة، في النهاية، بالشلل. فخلال عملية التقصي يتمتع العمل والسكون بنفس الدرجة من الأهمية كأي شيء أو حتى أكثر من أي شيء آخر».

هنالك من يخيل إليهم أن النشاط يعني التخبط! ولكننا لو نكون قد التفتنا إلى عمق مفهوم الحكمة الآنفة سوف نتوثق أن الاحجام عن المبادرة خلال سكون حيوي وسكون ناطق ربما يستجلب بحد ذاته أغنى المبادرات

وأكثرها نشاطاً. فحيثما لا توجد أية حركة، تنساب أكثر النشاطات حيوية في أعمق مستويات الوجود!

«من هنا، فإن الاستاذ
يعمل دون أداء شيء
ويعلم دون قول شيء!
أمور تحدث، يأذن لها بالحدوث.
وأشياء تختفي، يأذن بأختفائها.
إنه يملك ولكنه ليس بمالك.
يعمل ولكن دون توقع.
ومع انتهاء عمله، ينسىٰ.
ولهذا فإنه يخلد.
إنه يتدرب على اللا عمل. وكل شيء سوف يستقر في مكانه»[١].

---

١ ـ انظر «التاوتي تشنج»، لاوتزو.

«لا، للتثقف»

يقول الشاعر والكاتب الاسباني الكبير «بدرو ساليناس» (١٨٩٠ ـ ١٩٥١) في كلام له تحت عنوان «تراجيدية الأميين الجُدد من المثقفين أخطر من الأميين»:

«... لا أريد تجاهل دور تراجيدية الأمية، بل خلافاً لذلك، أرى أننا نواجه عدوين مقتدرين، أحدهما هو نفس العدو السابق والمعروف القديم (الأمية البحتة والتقليدية) وهو ما يمكن تحديده بسهولة ويُواجَه بأسلحة التربية والتعليم باسم محاربة الأمية. وهنالك إلى جانب ذلك عدو آخر يتقنع بقناع الثقافة ويخدعنا بها لأننا نتصور أن وجودها لا يكتنف مشكلة ما. وهو «الأمية الحديثة» عند المثقفين.

انعتاق آلاف الأطفال في الوقت الحالي من مخالب الأمية بفضل التعليمات الأولية، أمر مطلوب يستحق الإطراء. ولكن هؤلاء الأبرياء المتحررين تواً من ظلمة الأمية ومن اخطبوط الجهل الأولي، سوف يسقطون في فخ حلكة الجهل الثانوي. غارة مهيبة في انتظارهم... فهذا الساحر (الأمية الحديثة) يخدعهم بزيف «الثقافة» ويحوّلهم إلى مخلوقات أكثر جهلاً وأدنى مستوى»[١].

---

١ ـ انظر نشرة «نداء يونسكو»، ص (٤٢)، العدد (٢٤٢).

ويقول الشاعر شمس التبريزي في ذم هذه الثقافة «المعتِّمة» والعلم «المضلِّل»:

«والله وبالله وتالله، إنما يطلب هؤلاء الرجال العلم في هذه المدارس ليحرزوا درجة الاستاذية ويكون لهم مدارسهم. وما لك وطلب العلم لِلُقمة دنيوية. فهذا الخبل وسيلة للانعتاق من «البئر» لا الانتقال منها إلى آبار أخرىٰ. ليكن همك أن تعرف: من أنا وما هي ماهيتي؟ لِمَ أتيت وأين وجهتي؟ وما هو أصلي؟ ولأي أمر أنا الساعة؟ وإلى أين أتجه؟[١].

ولكن يا ترىٰ إلى أي حد تحصل هذه التساؤلات الأساسية على ردود واضحة وذات معنى في ظل هذا التثقيف المدرسي وفي المدارس الحديثة؟

وللتمحيص في المردودات الخفية والمستترة عن الأنظار لأنظمة التعليم الانتظامية وافرازاتها المعرقلة، يُحسن بنا أن نأتي هنا بكلام عن العارف المعاصر «اوشو» يتحامل به على أصحاب المسؤوليات في حقل التعليم والتربية في عهده وعلى مناهجهم ونمط أدائهم، حيث يقول:

«كل أدائهم هو نقل العلم من الجيل القديم إلى الجيل الجديد. أداؤهم يتحدد بالتوسط بين جيل مضى وجيل آت. إنهم رسل الماضي. ولهذا نفسه لم تحدث حتى الآن أية نهضة. فالنهضة لا تتحقق إلّا بالتعليم الصحيح ولا يثمر هذا النظام التعليمي إلّا سوء التعليم.

وأين الخطأ؟ في أن هذا النظام التعليمي يجعل الماضي خالداً أبدياً إزاء المستقبل، يجعل المتوفى أبدي الوجود إزاء الحي، وينشئ الأطفال الصغار بحسب نموذج يحدده الآباء والأجداد. هذا النظام خاطئ، لأن هؤلاء الأطفال سوف لن يعيشوا في دنيا آبائهم وأجدادهم. وسوف يمثلون على الدوام رقعة قبيحة ملحقة بهم. يُعدُّونهم لدنيا لم تعد موجودة الآن.

---

١ ـ انظر «مختارات مقالات شمس التبريزي»، ص ١٧٨.

كل انظمتنا التعليمية بليدة. فهذا النظام يُعِدّ الأشخاص لدنيا لم تعد قائمة اليوم. لا يُعِدّون الأطفال لدنيا قادمة سوف تظهر قريباً. فأنت سوف تراوح للأبد في هذه الدنيا العابثة والغير توافقية. سوف يتعذر عليك أبداً أن تواصل الحياة بشكل صحيح. فلو رضخت لنظام التعليم القائم تشعر بأنك مطمور، ولو رغبت في مواكبة الحياة الآتية، عندئذ سوف تكون تعليماتك غير مجدية في هذا العالم. سوف تتسم بالأمية تقريباً وهذا ما يؤلم النفس»[1].

لا تتحدد الأمية المعاصرة بعدم إجادة القراءة والكتابة، بل هنالك الأدهى من ذلك، أي «الأمية الحديثة عند المثقفين»، وهي عائق ضخم وقناع لتغطية قبح معالم الجهل الحديث لأنه يمنع الإنسان من تفعيل العقل وانتاج الأفكار.

---

١ ـ انظر «الرازه» لأوشو.

«لا، للتوجيه الإعلامي»

يقول «جاناتان غرين»:

«الدعاية هي فن استخراج أكذوبات كاملة من حقائق ناقصة»[1].

ويقول كنفوسيوس:

«أفصح الأقوال يكمن فيما لا يقال!».

***

ما دام المفهوم الحالي، لا المفهوم الحقيقي، يتحكم بفعل الدعاية فإنها تعتبر أداة لتحريف الحقائق والاستهانة بالأشخاص، لا غير. فالدعاية بنمطها الايحائي هي إهانة كبرى وُجِهت حتى الآن للعقل وعقلانية الإنسان.

فالدعاية الأحادية الجانب والتحاملية يكون لها تماثل مع كثير من المفاهيم إلّا معنى الإبلاغ ومفهومه في الثقافة الاسلامية والمذاهب الانسانية الاتجاه.

فمن الاعلانات والدعايات التجارية التي بثها التلفزيون الايراني وتمثل دعاية مضادة، في ظاهرها، ولكنها تتضمن في حقيقتها الأبلغ والأكثر جذابية هي دعاية عجلات «دِنا». تنصح الدعاية المشاهدين بان يقتنوا أية عجلة

---

١ ـ عن كتاب «مصنف المتفغمين»، جاناتاين غرين.

يرغبون فيها إلّا عجلات «دِنا»!

هذا النمط من الدعاية يذكرنا بالتمويه الدعائي الذي استخدمه مصنع «ونستون» الأميركي لصنع السجائر. اختار أصحاب هذا المصنع وهم على أعتاب الإفلاس أن يحدّثوا زبائنهم حول أضرار السجائر بكتابة عبارة «إياكم وشراء السجائر، حتى ونستون!» على علب سجائرهم المُنتجة. أي أنهم رغم المنع لجأوا في الوقت ذاته إلى ايحاء التشجيع والتأييد إلى ذهن متلقي الخطاب. وهذا هو الأسلوب الأعلامي الأعمق تأثيراً والأكثر استتاراً للدعاية لأية بضاعة أو فكر منظور.

من جهة أخرى، يبدو أن الأساليب الإعلامية المباشرة، سيما الدينية منها، تثمر نتائج عكسية. ولاتقاء حدّة هذه الحالة العكسية يجب اللجوء إلى الأساليب الغير مباشرة في مثل هذه التوجيهات الإعلامية، للحيلولة دون تحولها أكثر من هذا إلى إعلام مضاد!

من ناحية أخرى فإن المُبلّغ بحسب الاساليب الاعلامية الحالية يعتبر نفسه (خلال النشاط الدعائي التبليغي وبنمطه الدارج والمستوحىٰ منه غالباً) على مستوى أرقى من متلقي الخطاب الإعلامي فيفترضه آثماً ضئيل الشأن أو ربما حيواني الطباع ولابد من توجيهه لانقاذه من هذا الوضع المتدني. فالتوجيه الاعلامي بمعناه الدارج يعني العمل على جعل الآخرين متماثلين ومنسجمين مع الذات. وهذه الذات، قد تكون ذاتاً شخصية أو ذاتاً دينية، ذاتاً ميتافيزيقية، ذاتاً أخلاقية أو عرفانية أو حتى ذاتاً شعورية عاطفية. فكل من هذه الذوات يكون لها دور متميز في تحديد سياق التوجيه الإعلامي.

فما يتقصاه التوجيه الإعلامي في ظاهره وباطنه هو تحديد وصفات علاجية للجميع. وتحديد الوصفات للجميع قوامه الافتراضات والتصورات المتقولبة عن الإنسان، أي على افتراض ان الاشخاص جميعاً لا يتشابهون فقط، بل يتماثلون تماماً، أو تقريباً تماماً، في جميع احتياجاتهم وعواطفهم

واتجاهاتهم وسلوكياتهم. من هنا يمكن تحديد وصفة واحدة للجميع.

انطلاقاً من هذا يقول «كورنفورد»: «الاعلام هو فرع من فن الكذب وهو على الأرجح يخدع الأصدقاء أكثر من الأعداء»[١].

والخطر يبدأ بالظهور مع اعتبار الإنسان شيئاً يمكن قولبته وتحديد أفعاله وهو فيما يخص الخطابات الموجهة يتمثل بآلة التصوير التي تعكس حالة كل ما يستقر إزاءها. من هنا، فإن التوجيه الإعلامي عملية ايحائية مرفقة بالإهانة وبالحط من مستوى الانسان واستصغار شأنه.

على هذا، فإن التوجيه الإعلامي فيما لو خرج عن إطاره واتجاهه الإلهي، فإنه يغدو وسيلة بحتة لخداع الآخرين وتشويه أفكار المخاطبين. ولهذا يُحسن قمعه من الأساس.

---

١ ـ المصدر السابق نفسه.

«لا، لإسداء النصائح»

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«كونوا دعاة الناس بأعمالكم ولا تكونوا دعاة الناس بألسنتكم»[1].

***

يقول الشاعر الحكيم سعدي الشيرازي: لما كُنت أتحدثُن بالوعظ، في جامع بعلبك، مع جماعة مكتئبة، ذوي قلوب مائتة، لم أبلغ من عالم الظاهر إلى عالم المعنى. فوجدت أنفاسي لا تتردد وناري لا تؤثر في حطب ندي. كَبُر في نفسي تربية المواشي والتزيين بالمرايا في حارة المكفوفين».

وهو يقول أيضاً:

«لما كنت لاترى المصباح فماذا ترىٰ بالمصباح؟»

وفي مجال آخر يقول:

«إنه لا يستنصح.. فنفخ الأنفاس الساخنة لا يؤثر في حديده البارد».

كل هذه الحِكَم تنوه إلى أن النصائح الفاقدة للتأثير يحسن الكف عنها بادئاً. فالأجدر بالناصح أن يستهدي بحكمة الشاعر مولوي، حيث يقول:

---

١ ـ أصول الكافي، المجلد (٣)، ص (١٢٤).

«المستمع، كأنه دقيق في يد صانع عجين
والكلام، كأنه ماء في الدقيق
فليُسكبنّ عليه من الماء ما يصلح حاله»

أما إذا انعدم الماء فكيف يصنع العجين؟ إذاً، يحسن عدم إهدار الماء وكذلك عدم اتلاف الدقيق اهتضاماً!

فالنصائح ما لم توجه لمتلق فهيم تؤدي إلى ضياع كلا الناصح والسامع وإلّا يُفضل الامتناع عن التوجيه والنصح على عرضه. ويكفي لايضاح هذه الحالة أن نذكر كلام للشاعر «شمس تبريزي» حيث يقول:

«من كان له حظ من السعادة، تصقل النصيحة وجوده كالمرآة ومن لم يكن بذي نصيب من السعادة يعكر كلام النصح نفسه ويزيد من صدأ مرآته..».

يوجه أحد الناقدين في مجال أدب الأطفال والناشئة انتقاداته للكتب القصصية التي تعرض خطاباتها بأسلوب النصائح والتوجيهات المباشرة، فيقول:

أسوأ القصص هي القصة التي تكون مرفقة بإسداء النصائح وتحديد الواجبات. وقد اختبر الفن والأدب العالمي هذه القضية في عهد استالين في روسيا وهتلر في المانيا. فقد وجّه استالين ما امكنه من ضربات للفن والأدب ونسف هتلر سينما المانيا المتقدمة.

كل شخص لابد له أن يحدد طرق حله بنفسه. ليس من وظائف الأدب أن يحدد تطبيقات للناس، فالأدب والفن نوع من أساليب الارتباط بين الأشخاص. ففي أفضل الحالات ينبغي ان يعلمنا نظرة مغايرة وأكثر انسانية إلى العالم[١].

---

١ ـ جيتا جرجاني، «كتاب الشهر»، (شهرية تصدرها وزارة الارشاد الاسلامي في ايران)، خاص بالأطفال والناشئة، العدد ١٢، ايلول ٢٠٠١، ص ٩٨.

كما يقول «جوان آيكن» وهو أحد الكتّاب في حقل أدب الأطفال والناشئة: لأنني أشعر ان الأطفال يبدون بنحو طبيعي صداً إزاء المبادئ الأخلاقية المزيفة، أتعمد في عرض الخطاب الأخلاقي في كتبي. فبامكان الأطفال قبل تفوّه الكبار بما يحملون من أهداف اخلاقية أن يكشفوا أهدافهم الأخلافية[١].

ويَكتب «مارجري فيشر» نقلاً عن هافيلند (١٩٧٣):

«يجب ان لا نتوقع ان تكون قصص الأطفال مواعظ أو ابحاث فضائية أو كتابات في علم الاجتماع. ينبغي أن تكون، وبحسب أهدافها وباعتبارها أعمال فنية كاملة ومستقلة، ممتعة بالنسبة لأذهان الأطفال وقوة تخيلهم ومعنوياتهم.

ان أمثل النصائح هي الغير مرئية منها، نصائح لا تكون نصائح بل أسلوباً لإذكاء الناصح الباطني حيث ينعدم جميع أنواع التحامل والايحاء الخارجي.

---

١ ـ المصدر السابق نفسه.

«لا، للتقولب»

يقول «شمس التبريزي»:

«ما شهده العالم من ضياع، شهده جراء اقتناع شخص ما بالتقليد أو تنكره للتقليد»

***

«ذات يوم كان العارف الكبير الشيخ عبد الله الأنصاري يمر بطريق برفقة أحد مريديه. كان مريده يسير خلف الشيخ التزاماً بالأدب فناداه الشيخ وطلب منه أن لا يسير خلفه. فقال المريد في نفسه: لقد أخطأت! قد يرغب الشيخ في التحدث أو التدريس. فسارع لمسايرة الشيخ عن جانبه الأيمن.

وبعد لحظات عاد الشيخ ينهى الفتى عن السير إلى جانبه الأيمن. قال المريد في نفسه: لقد أخطأت. فالسير إلى يمين العظام من شأن كبار المريدين. فصار يسير إلى يسار الشيخ. وبعد هنيهة ناداه الشيخ وطلب منه أن لا يسير إلى يساره. نهر المريد نفسه: لقد أخطأت مرة أخرى. كان يتوجب علي أن أتقدم على الشيخ لأفتح الطريق أمامه وأصد إشعاع الشمس على وجهه. وهكذا فعل. ولكن بعد قليل دعاه الشيخ للمرة الرابعة وأمره أن لا يتقدم عليه.

احتار المريد، ماذا يفعل؟ فقال للشيخ: لا وراءك، ولا عن يمينك ويسارك ولا أمامك، فمن أية جهة أتحرك؟

أردف الشيخ ناصحاً الفتى أن يحدد دربه بنفسه فيسير فيه».

تشير هذه الحكاية إلى أهم وأروع احتياجات الإنسان، ألا وهي وعي الذات والاعتماد على النفس وزعامة الذات. أما عن نمط الحفاظ على «الكينونة» في خضم معاشرة الآخرين فطريق تنمية الذات يمر من ضبط الذات، والأسلوب الصحيح الوحيد لمعاشرة الناس هو التمايز عن الآخرين!

فبراعة أي مرب ومعلم تكمن في توجيهه كل شخص بالأسلوب المناسب للشخص ـ لا بحسب ذوقه هو ـ ينبغي لكل شخص أن يستند إلى أسلوبه وطبيعته هو في الكشف عن نهجه لا تلقيه من الخارج وفي التحقيق لا التقليد وفي الابداع لا الاقتباس. فتألق الإنسان المتنامي وتبصره هو في تحديده لنهجه والتوصل إلى تباعدية الفكر في زحام الطرق المتشابهة والقريبة.

«لا، للادخار»

«لك من مالك ما أنفقت»[1]

يروى أن رجلاً جاء رسول الله ﷺ في زمن الجدب، فقال: أطعمني فاني جائع. فبعث عليه أفضل الصلاة والسلام إلى أهله يسألهم عما إذا كان عندهم ما يستضيفون به الرجل فلم يكن عندهم شيء. فقال: من يضيفه هذه الليلة؟ فصحبه رجل من الأنصار وأتى به منزله فأخبر زوجته أنه جاء معه بضيف رسول الله، فلتكرمه (ولا تدخر) عنه شيئاً. فعلم منها أنه ليس عندها إلّا قوت صبية لهما فطلب منها أن تقوم للأطفال فتعللهم وتشغلهم عن الطعام حتى يغلب عليهم النوم. ثم تأتي بمصباح وبما عندهم من طعام فتنهض بعدها متعللة بإصلاح المصباح فتطفئه. فيتظاهران بعد ذلك بمضغ الطعام فيظن الضيف أنهما يأكلان معه فيأكل حتى يشبع. فنهضت الزوجة فعلّلت الأطفال حتى ناموا وفعلت ما أمرها زوجها فظن الضيف أنهما يأكلان معه فأكل حتى شبع ونام الزوجان جائعين، فلما أصبحا غدوا إلى رسول الله ﷺ فنظر اليهما وتبسم وتلا عليهما الآية: ﴿ويؤثرونَ على أنفُسِهِم ولو كانَ بِهِم خصاصة﴾[2].

ويروى أيضاً أنه في ليلة ما اجتمع عند أبي الحسن الانطاكي أكثر من

---

١ ـ من الأمثال العربية، قاموس (المورد)، منير البعلبكي.

٢ ـ سورة الحشر، الآية ٩.

ثلاثين رجلاً من الزهاد والكرماء وليس عنده أكثر من رغيفين أو ثلاثة أرغفة من الخبز، ربما لا تشبع حتى خمسة منهم. قطّعوا أرغفة الخبز وأطفأوا المصباح وجلسوا إلى السماط يأكلون الخبز وكل منهم يلوك لسانه مصطنعاً المضغ ليظن الآخرون أنه يأكل ولما رُفع السماط كان الخبز على حاله فلم يأكل أي منهم خبزاً ليؤثر الآخرين به على نفسه[١].

***

تعرض هذه الحكايات الحكيمة حالات من الايثار والتضحية والكرامات الوالهة. وهذه المآثر الخُلقية إنما تكوّنت من انعكاسات روح البذل وحب الآخرين. فعظمة وجود الإنسان وتناميه يكمن في تعاطيه بالجود والسخاء في حياته. بالضبط كما يتوقف نمو البذور والحبوب على بذلها وجودها للتربة. فلا تختبر البذور الانطلاق من التربة ما لم تبذل وجودها للتربة. أي أنها لا تحقق ذاتها إلّا إذا جادت بنفسها، فلا تزيد من قدرها ما لم تُنقص ذاتها.

يقول المُنتج السينمائي الكبير «روبربرسون»: «إننا لا نتنامى بالاستزادة بل بالإنقاص!»

فلنأتِ بكلام عن «جورج لويس بورجس»[٢] حول أهمية البذل والعطاء، ننقله من كتاب «الحب، رقصة الحياة»، حيث يقول:

«وما يهمك، إبذله للكلاب
ألق الدرر إلى الخنازير
فما يهم هو، البذل»

---

١ ـ انظر تحفة الإخوان.

٢ ـ Jorge Luis Borges: أحد مشاهير الكتاب في اميركا اللاتينية، وهو من أصل مكسيكي.

إننا ما زلنا نسمع منذ القدم كلاماً خلافاً لهذا حيث يقال: لا تقدم شيئاً للكلاب والخنازير فإنها لا تفهم العطاء.

القضية لا تتوقف على ما تبذل ولمن تبذله بل على أن تبذل. أي أن ما يتسم بالقيمة هو «البذل» و «العطاء» نفسه. يتعين على الانسان أن يجود ما دام عنده ما يجود به. (اوشو)

وكان العارف الروسي «جورجيف»[1] يقول: «كل ما ادخرته أهدرته وكل ما بذلته بقي ملكاً لي. فما بذلته ما زال معي وما ادخرته فقدته». فالانسان لا يملك إلّا ما تقاسمه مع الآخرين. لأن «الحب» ليس مالاً ومتاعاً يمكن إدخاره. الحب، نكهة وطراوة يجب تقاسمها مع الآخرين. فكلما تبذل أكثر تحصل على قدر أكبر وكلما ينحسر عطاؤك يتقلص ملكك. فكلما ترشح عن صلب وجودك حباً أكبر كان مصدره غير محدود، لا متناهياً. فسحب الماء من البئر يزيد من انبثاق مياهه الجوفية ولو امتنعت عن سحب ماء البئر وأغلقتها وتصرفت بخساسة، يتوقف نشاط ينابيعها حتى تنكفئ تماماً بالتدريج وينقطع سيلانها. أما ما وجد في البئر من الماء فإنه يسكن ويركد ويتعفن بالتالي. أما الماء الجاري فإنه يحتفظ دوماً بسيولته وحداثته. والحب الحي هو حب فاعل ومدرار.

إذاً، تقاسموا الخيرات، تقاسموا الجماليات، تقاسموا الحياة، تقاسموا كل ما تملكون. (لا تدخروا جماليات الحياة لأنفسكم أبداً). ضم إلى هذه الجماليات التعقل، الدعاء، الابتهاج والهناء. لو لم يكن عندك من تبذل له العطاء، لا يهم تقاسمها مع الكلاب والصخور. المهم هو أن تبذل العطاء وتتقاسم. لو كنت تمسك في يدك على قبضة من الدر، ألقها. لا يهم، عند أقدام مَن؟ لأن (المهم هو البذل والعطاء).

1_ Gurdief

إن الاكتناز والادخار يسمم القلب. والاحتكار بجميع أنواعه سم. فلو بذلت العطاء تنقّي وجودك من السموم. ولكن وانت تجود لا تتوقع عملاً متبادلاً أو مكافأة، حتى لو كان شكراً بل اشكر من يسمح لك أن تتقاسم معه شيئاً ما. لا تخاطب نفسك انك ما دمت تقاسمت شيئاً مع أحد فلابد له أن يشكرك على ذلك. بل اشكره لاستعداده للاستماع إليك وتقاسم طاقته وحيويته معك. يجب أن تكون ممتناً له لأنه لم ينبذك بل تقبلك برحابة صدر.

فمن أثمن الفضائل المعنوية والإلهية هو الجود والتقاسم[1].

اما الملاحظة النهائية فإنها:

«يحسن بكم بدلاً عن التفكير بالأخذ أن تهتموا بالعطاء وبإسهام الآخرين فيما تثمنونه وتلتذون به. فلو تبذلوا تكسبوا. ليس هنالك من طريق آخر. الناس غالباً يتركز اهتمامهم بأن كيف يتلقفون ويستحوذون. الكل يرغبون في الأخذ ويبدو أن العطاء والجود لا يستهوي أحداً. الناس يجودون مرغمين ولو جادوا كان هدفهم الحصول على شيء ما إزاءه كأنهم ينفذون معاملة. لا يفوتهم قط أن يكسبوا أكثر مما يبذلون. إنها طريقة صحيحة بحسب الرؤية التجارية».

أما في قاموس الحب، الصدق، بُعد النظر والسخاء ورحابة الصدر، فيما لو وجدت بالفعل، فان الأخذ والعطاء يتوحدان في مفهوم واحد وتنعدم الحدود بين الأخذ والعطاء. فكما يقول «ديباك جوبرا»:

الأخذ ضروري على قدر العطاء. فالتقبل عن رغبة تامة مظهر من مظاهر عظمة العطاء. فالذين يفقدون القدرة على التقبل، يعجزون بالفعل عن العطاء. فالبذل والتقبل هما واجهتان مختلفتان لانسيابية الطاقة في عالم الوجود.

---

١ ـ انظر «الحب، رقصة الحياة».

والأخذ والعطاء لا يتحددان بالضرورة في خصوص الماديات. فتقبل الإطراء أو الثناء أو إبلاء الاحترام عن رغبة تامة لدليل علىٰ قدرتك على ان تبذلها للآخرين... (عن كتاب خلق الكثرة)

«لا، للنشاط الزائد»

من عالم الفكاهيات الجادة:
«لولا كسل الإنسان لما تحقق أي ابداع واكتشاف».

***

الانسان مخلوق كسول. فما لم ينجزه، أحجم عن إنجازه كسلاً وما أداه أداه كسلاً. فكل إبداع واختراع تأخذه بنظر الاعتبار، من أصغرها وحتى أعظمها، يعود فضله إلى تطبع الإنسان بالكسل. اختراع الآلة لم يتأت من نشاط الإنسان بل لكسله. فاختراع غسالات الثياب والأواني، والمصعد الكهربائي و... كلها ثمرة تقاعس الإنسان.

يثقل على الإنسان أن ينتقل هنا وهناك ليتقص الأخبار فأبدع الصحف. فالصحف من أكثر إبداعات الانسان كسلاً: يستلقي على الأريكة مسترخياً ويمسك بعدة أوراق في يده فيطّلع على ما يجري من أحداث في العالم بأسره، مرها وحلوها.

كلنا نعرف أن التفكير هو أصعب نشاطات الإنسان. فالتفكير لا ينسجم قط مع مزاج الإنسان ولا يتواءم مع خموله أبداً. والتلفاز يُنقذ الإنسان من ورطة التفكير.

يستثقل الإنسان أن ينهض ويسير قليلاً على قدميه فيزور أصدقاءه أو

ينسق ما بذمته من أعمال فابتدع المكاتبة والبريد والهواتف و...

إذاً، لم يكن نشاط الإنسان مدعاة الاختراعات بل كسله وتقاعسه كانا سبب كل هذه الابداعات العلمية والفنية والصناعية![1].

ولكن.. هل المطلوب من هذا المزاج المثبط، إشاعة ثقافة الكسل وكبح نشاط الانسان ومثابرته لتحقيق ما يوفر له رفاه العيش من أهداف؟

هل يتمثل حل عقدة مأزق البشرية هذه في تبني النهج الانفعالي اللا ناشط إزاء الوقائع والعوائق الكبرى؟

هل المنظور من هذا الكلام إقصاء التفاعل البناء في سياق بناء الحاضر والمستقبل؟

نترك الحكم بشأن هذا المحظور، المتعارض في أجزائه، لأذهان القراء الذكية.

---

١ ـ عن «نشرة مهر»، العدد (٢٠٧)، مقال «في مدح الكسل».

«لا، لتحاشي الخطر»

يقول الشاعر مولوي:

مگـريز اى جـان ز بـلاى جـانان گر تو خام مانى جو بلا نباشد»[1]

***

حول ضرورة تقبل الأخطار إرادياً، ودور ذلك في ارتقاء الحـياة، يـدلي عالم الاجتماع المعاصر «انطوني جيدنز» بكلام مدهش وغير مـتناسق مـع أنماط النسق الفكري الاجتماعي الدارج في حياتنا، حيث يقول:

«تقبل المخاطر قصديّاً يمثل جزءاً هاماً من معنويات المجازفة. فـبعض جوانب او مختلف أنواع المجازفات يمكن تقييمها باعتبارها تـقبلاً للـخطر ذاته، ليس إلّا... وفيما لو كان هدف هذه المجازفات التنامي يمكن التحدث عنها باعتبارها «مجازفات منمّية» (Cultivated risk)[2].

وينوه «جافمان» بدوره إلى أن الشخص ذا الرغبة الشديدة في المجازفة عن عمد، قادر على أن ينظر إلى كثير من الحالات التي تبدو للآخرين عابثة

---

١ ـ معناه:

ـ «لا تتحاش يا عزيز مصائب الحبيب، فلولا المصائب لبقيت غير ناضج».

٢ ـ «الحداثة والاعتداد بالنفس»، انطوني جيدنز.

وغير ذات أهمية باعتبارها فرصاً مناسبة، فيحسن استغلالها لصالح نفسه.

بتعبير آخر يمكن القول أن «المجازفة عن قصد ووعي» هي نوع من «اختبار الثقة» يثمر في النهاية التزامات بالنسبة للهوية الشخصية عند الشخص. فالتحكم بمثل هذه المجازفات يولد نوعاً من إرضاء الذات ويدل على أننا سوف ننجح، عند تبلور الصعاب والمشاكل، في التغلب عليها. فالخوف يولد التشوش والرهاب. ولكن في الحقيقة نفس هذا الخوف هو الذي يغير مساره فيظهر في إطار التحكم بالأوضاع. فالتشوش والرهاب الناشئان عن المجازفات المدروسة يتغذيان من نفس روح «الشهامة».

بتعبير آخر فان المخاطر والمجازفات وتقبل الأخطار هي التي توسع حيز الفكر الإنساني وتنمي مقومات روحه ونفسه في سياق إبداع طريق تحاشي الأخطار والتخلص من تبعاتها. فالمخاطر المنمية، بنفس هذا المفهوم، تؤدي إلى تنامي الإنسان ونضجه وتمرسه في مواجهة المشاكل وعراقيل حياته. فليس هنالك من يتنبه لإمكانية النمو والارتقاء في ذاته دون مواجهة الأخطار والأزمات. من هنا ينبغي ان لا نتهرب من الأخطار فقط بل نسارع لتقبلها واستغلالها في خدمة نمونا وارتقائنا.

«لا، للنسق المألوف»

يقول الله سبحانه وتعالىٰ:
﴿وأما بنعمةِ رَبِّكَ فحدّث﴾[1].

***

نشأت أغلبية حالات التقدم الفكري والاجتماعي الذي شهدته المجتمعات الإنسانية عن إعادة صياغة الأحداث والوقائع بنمط تباعدي غير مألوف وغير متوائم مع النسق المألوف، بالضبط عندما تتسم نظرة الإنسان إلى «الأوضاع المألوفة» بطابع «غير مألوف». ففي مثل هذه اللحظات يعاد اكتشاف عالم الخلق ويكون له على مر اللحظات طابع ومفهوم جديد.

عالم جديد ونظرة جديدة تتولد عن إزالة كل شيء مألوف عن المسيرة المألوفة للحياة. فلو صار بالامكان النظر إلى كل شيء مألوف باعتباره غير مألوف والاحجام عن عرض الأحداث الجارية بنظرة عادية، يكون بالمقدور التمتع بإشعاعات من الابداع والابتكار الشخصاني الخاص. شهد تاريخ الشعب الايراني ظهور شخصيات من العرفاء والسالكين إلى الله على درب اليقين، اتسموا بشهامة وبصيرة متسامية في مجال تحطيم الأطر العادية

---

١ ـ سورة الضحىٰ، الآية ١١.

وخلط أوراق الرتابة في الحياة، عرفاء ومتصوفون عظام استعرضوا مسيرة الحياة برؤيتهم، المتقصية للمفاهيم، بأسلوب جديد أمام أنظار طلاب الحكمة. ومن النماذج المعروفة لأمثال هؤلاء المفاخر عرفاء متألقين مثل: سنائي، عطار، حافظ، دهلوي، صائب التبريزي، مولوي، عين القضاة الهمداني و... حيث كان لهم دور حاسم في تحطيم العادات وأطر التفكير. لا نريد هنا عرض نماذج من مبادرات هؤلاء العظام بل خلافاً لذلك قررنا عرض القصص والحكايات الأكثر مألوفية. تعترينا بادئاً الدهشة لفرط عبثيتها ولكن بامعان التفكير قليلاً فيها، وبأسلوب غير مألوف، سوف نتنبه إلى أن نفس هذه الحكايات الشعبية العادية، المتفككة والفاقدة لأي خطاب ومعنى في ظاهرها، تخفي في ثناياها حكماً متعمقة ونصائح زاخرة بالأسرار والغوامض.

إحدى هذه الحكايات، حكاية كانت الأجيال الماضية تتناقلها بكثرة وذكرها «د.ل. لريمو» في كتاب ثقافة الشعب الكرماني. تحمل هذه الحكاية عنوان «قصة أمير لم يكن له رمق» كان مُعدّ الكتاب قد سمعها ودوّنها في اوائل القرن الفائت:

«كان هنالك سلطان له ثلاثة أبناء، إثنان منهم ماتوا عنه والآخر لا رمق له. له ثلاث خزائن، إثنتان خاويتان والأخرى لا باب لها. وله كذلك ثلاثة أقواس وسهام إثنان من كلاهما مكسوران وثالثهما لا وتر له. وله ثلاثة سكاكين، إثنان مكسوران والآخر لا نَصل له. له ثلاثة جياد في الاصطبل، إثنان توفيا والآخر لا رمق فيه. له ثلاثة لُجُم إثنان تهرّءا والآخر لا أثر له.

نفس الأمير غير ذي الرمق دخل نفس الخزانة غير ذات الباب وحمل نفس السهم والقوس غير ذي الوتر وكذا نفس السكين غير ذي النصل. ثم دخل الاصطبل ووضع نفس اللجام غير ذي الأثر على ظهر الجواد غير ذي الرمق فامتطاه وقصد الصيد به. لمح ثلاثة ظباء، إثنان مائتان والآخر لا رمق له. حمل نفس السهم والقوس غير ذي الوتر بنفسه وطعن بنفس السكين غير

ذي النصل نفس الظبي غير ذي الرمق بنفسه وبنفسه ذبحه بنفس السكين غير ذي النصل وعاد يمتطي الجواد غير ذي الرمق. سار حتى وصل خربة كان فيها ثلاث حجرات، إثنتان تهدمتا والآخرى لا سقف لها. دخل نفس الحجرة غير ذات السقف فشاهد ثلاثة قدور إثنان لا جدار لهما والآخر لا قعر له. وضع الظبي في نفس القدر غير ذي القعر ثم أكل من نفس ذلك اللحم حتى عطش. فركب نفس ذاك الجواد غير ذي الرمق وسار حتى وصل ثلاثة نهيرات غير ذات نداوة فشرب وشرب حتى سقط فيه برأسه»[١].

تبدو هذه القصة الخيالية بنسق غير مألوف فمع ان طابعها شعبي ولكنها لا تتماثل مع القصص الشعبية الأخرى. وبقليل من الامعان يلاحظ القارئ انه من المُستبعد ان تكون هذه الحكاية منبثقة من الفكر الشعبي. فلا تناقض منطقي في هذه الحكاية. ولا يتضمن أي من أجزائها اجتماع نقيضين ولكن يظهر وبوضوح أن حدوث وقائعها أمر مستحيل بحسب النسق الطبيعي. فكيف يمكن لشخص لا رمق فيه ان يقصد الصيد ويذبح ظبياً بسكين لا نصل له؟! وكيف يمكن طهي الطعام في قدر لا قعر له؟! ولو نترك هذه الاستفسارات، هنالك سؤال آخر يتعلق بوجود نفس هذه الحكاية. فما هو خطابها يا ترىٰ؟ وماذا تريد تحقيقه عند المستمع؟ فهذه الحكاية وبمثل هذا القصر وكونها غير مسلية أيضاً، كيف يتسنى لها أن تحتفظ بمكانتها ويتم تناقلها عبر الأجيال؟ ربما يمكننا القول أن هذه الحكاية تريد تحرير الذهن من حدود الطبيعة وقيودها[٢].

---

١ ـ «ثقافة الشعب الكرماني»، اعداد «د. ل. لريمو».

٢ ـ يكتب صاحب هذا النص في الهامش: «بايجاز، هذا ما أوردته في نقد كتاب ثقافة الشعب الكرماني وفيما يخص هذه الحكاية بالذات. فمع أن الأضواء تسلط بشكل أوسع على هذه الحكاية في الوقت الحالي ولكن ذلك لم يغير رأيي بشأن ←

أما الرد الأصوب على هذه الاستفسارات فإنه يمكن تقصيه في كتاب «سلسلة الأحد عشر رسالة». وهو من مصنفات صدر الدين ابو الفتح السيد محمد حسيني الملقب بلقب «گيسو دراز» من كبار مشايخ سلسلة «جشتي» في الهند. طبع الكتاب عام (١٣٦٠هـ.ق) في حيدر آباد بدكن حيث عاش المؤلف في «دكن» حتى وفاته بعام (٨٢٥). ترك «گيسو دراز» مؤلفات عديدة باللغة الفارسية، ومصنفه هذا يحتوي (١١) رسالة من رسائله القصيرة وآخرها رسالة قصيرة تحمل عنوان «برهان العاشقين»، جاء في صفحة عنوانها أن هذه الرسالة عُرفت باسم قصة «الإخوان الأربعة» واشتهرت تحت عنوان «رسالة الصيد». بمطالعة هذه الرسالة يتضح وجود ارتباط بينها وبين الحكاية الكرمانية «الأمير» وربما كانت أصلها الذي استلهمت منه. نأتي هنا بقصة «گيسو دراز» ليمكننا مقارنتها مع الحكاية الكرمانية:

«إعلمنّ أننا كنا أربعة إخوان من تسعة أو عشرة. لم يكن لثلاثة منا رداء وآخرنا كان عرياناً. كان لأخونا العريان يد من ذهب في كمّه. قصدنا السوق لنبتاع قوساً وسهماً للصيد. نزل بنا القضاء أن نُقتل اربعتنا فنهضنا أربعة وعشرون. عندئذ وجدنا أربعة أقواس ثلاثة منها مكسورة أو معيوبة ولأخراها تربيعتان وقرنان. ابتاع أخونا العريان ذاك القوس دون تربيعة ودون قرن. ولابد له من سهم. وجدنا أربعة سهام ثلاثة منها مكسورة وأخراها لا رأس له ولا نصل. أقتنينا ذاك السهم غير ذي الرأس ونصل وتوجهنا إلى الصحراء نريد الصيد. رأينا أربعة ظِباء، ثلاثة منها توفيت وأخراها لا رمق فيه فسحب أخونا العريان حامل القوس ورامي السهام، ذاك السهم غير ذي

← دورها في إطلاق ذهن المستمع. فهذا ما يمكن الاستناد إليه باعتباره أحد أسباب ديمومة هذه الحكاية عبر القرون. (نقلاً عن كتاب «نظرة جديدة» للدكتور نصرة الله بور جوادي، مطبوعات مركز، ١٩٨٨، ص ١٢٩ ـ ١٣٤)

الرأس والنصل من ذاك القوس غير ذي التربيعة والقرن وأصاب به الظبي غير ذي الرمق.

كان لابد لنا من احبولة نربط به الصيد. وجدنا أربعة حبال، ثلاثة منها متقطعة وأخراها لا طرف لها ولا وسط. فربطنا الصيد بتلك الأحبولة غير ذات الطرف والوسط.

كان لابد لنا من دار نقيم ونطهي الصيد فيها. وجدنا أربعاً تهدمت ثلاثتها، وأخراها لا سقف لها ولا جدران. نزلنا بتلك الدار غير ذات السقف والجدران.

وجدنا مرجلاً على رف عال لا تبلغه يد. حفرنا أحفورة بأربعة أذرع تحت الأقدام، فوصلت الأيدي إلى المرجل. ولمّا طُهي الصيد نزل شخص من أعلى الدار أن امنحوني نصيبي فلي نصيب مفروض. وكان أخونا الكامل المتكامل يتربص له فاخرج عظام الصيد من المرجل وضرب به فرق رأسه. فانبثقت من كعب قدمه شجرة الغبيراء. حلقنا حول شجرة المشمش، كانوا قد زرعوا البطيخ. كانوا يسقون المقلاع ماء. أنزلنا منه شجرة باذنجان وصنعنا حميسة الجزر وقدمناها إلى أهل الدنيا. فأكلوا حتى تورموا فظنوا أنهم سمنوا. لم يقدروا على الخروج من باب الدار فتلوثوا بنجاساتهم. خرجنا بسهولة من كيد تلك الدار. فنمنا خارجها ثم واصلنا السفر. ولأولي الألباب أن يعرضوا هذه الحالات».

كما يبدو لا تتضمن هذه الحكاية، الخيالية أيضاً، شيئاً سوى التخيلات الواهية وتصنيف أساطير شعبية. ولكنها ليست كذلك في الحقيقة. لقد رفعت عن هذه الحكاية قيود الطبيعة. بالضبط لأن راوي الحكاية يهدف إلى إطلاق فكر القارئ وتحريره من القيود الطبيعية المادية ونقل فكره إلى ساحة أخرى. فالأشخاص والأشياء وأحداث الحكاية كلها غير طبيعية. و «گيسو دراز» يذكر في البداية آية من آيات القرآن الكريم وينبّه بذلك القارئ إلى أنه يريد

أن يأتي بمثل «يحثه به للتفكير. وكل هذه الشعوذات المتتالية التي تستحث فكره ما هي إلّا تخيلات واهية. ويريد صاحب القلب الرؤوف أن يهدي القارئ، بهذا التمثيل، إلى الطريق الصحيح للتفكير[١].

١ ـ نقلاً عن كتاب «نظرة جديدة»، فصل تفسير العرفان خلال الحكايات الشعبية، نصر الله بور جوادي، مطبوعات «نشر مركز»، ص (١٧٠ ـ ١٧٣).

«لا، للانطباعات الذهنية»

يقول «ارنست ديمونه»:

«الانطباعات الذهنية تمنع تفعيل الذهن»

***

يقول العارف الكبير «اوشو»[1] في اسناد كبح الانطباعات الذهنية وتحاشي الفكر:

«انتم لا ترون العالم كما هو، بل كما تملي عليكم أذهانكم. فالاشخاص على اختلافهم تم إشراطهم بأساليب متنوعة. ولا يتفاعل الذهن إلّا في سياق هذا الإشراط. ويتعاطى الأشخاص مع مختلف القضايا بحسب أسلوب إشراطهم. ونحن يخيل إلينا أن شخصاً ما هو أدنى من شخص آخر والنساء على قدر أدنىٰ من القدرة، وأن الرجال أقوى. شخص ما أقوى ذكاءاً والآخر أقل حظاً من الذكاء. لقد تبنت البشرية هذا التصنيف. وكل هذا إنما يمثل طبقات انطباعاتنا الذهنية المتراكمة على بعض. وفيما لو تعذر عليك التخلي عن ذهنك لتلقي إلى الوجود نظرة مباشرة وبنباهة نقية،

---

١ ـ عن كتاب «الحب، رقصة الحياة».

سوف لن تنجح أبداً في مشاهدة الحقيقة. فأعظم شهامة في هذا العالم هو التخلي عن الذهن وأشجع شخص هو من يقدر على النظر إلى هذا العالم بعيداً عن عائق الذهن، فينظر إليه كما هو بالضبط. وهذا في منتهى الجمال وعلى تباين تام».

فأذهانكم متعللة في الحقيقة والطريق الصحيح للتعرف على الحقيقة والواقع هو التخلي عن الذهن والنظر إلى الحقيقة بفراغ بال وصمت ودون أي تفكير. سوف ندرك في مثل هذه الحالة حقيقة لعلى اختلاف تام. وإدراك الحقيقة يكفكم شر الكثير من الحماقات والخرافات، وينقي القلب من جميع الأدران التي تعكر صفوه. فالتشوشات تنتقل من جيل لآخر وانتم ترثون ماضي جميع هذه الأجيال بكله وبما فيه من آراء خاطئة.

ربما لهذا السبب نفسه يعود فشل الإنسان في عملية «التفكير» الانسيابية الحرة وهو مكبل في أسر ذهنياته وانطباعاته. لأن الانشغال بالانطباعات الذهنية يمنع الانسان من ادراك الحقيقة «كما هي» بل يتحسس عالم الوجود كما توحي له انطباعاته لا كما هو في واقع حاله!

من هنا فإن الفكر عندما يعتقل في زنزانة الذهن ويكون الفكر أسيراً للانطباعات او بالعكس، يفشل الإنسان في سياق الإبداع. فالتفكير يعني نبذ الانطباعات الذهنية الفكرية، وكما يوضح «كريشنو مورتي» بدقة تامة «الفهم يعني نبذ الفهم»! ويقول «نيتشه» بتعبير آخر: «من ينبذ الفهم يكون قد أدرك الفهم حقاً». والتفكير هو الآخر يقترب من مفهومه المتسامي ومجاله السيّال خلال مثل هذا التعريف المتعارض في ظاهره.

ويجعل «اوشو»، في مجال آخر، الذهن والقلب في مواجهة البعض فيقول: «الذهن أعمى أصم بينما القلب على خلافه تماماً، فإنه سميع وبصير تماماً ويتمتع حتى بقابلية استيعاب ظواهر لا تراها عين الرأس وأصواتاً لا تسمعها أذن الرأس. والوجود مكتظ بظواهر إدراكها يتطلب وجود القلب. ليس إلّا.

إرحلوا عن الذهن إلى القلب. قلّصوا تفكيركم، ولكن أكثروا من الشعور.

فلفظة «التأمل» هي ترجمة لفظة «ديانا»[١] السانسكريتية ولكنها لا ترادفها بالضبط لأن «ديانا» تعني التواجد والوعي التام دون وجود أي موضوع، بينما «التأمل» يعني التركيز والالتفات لموضوع معين. فأنت عندما تركز انتباهك في موضوع معين أي تتأمل فيه تكون في طور التفكير نوعاً ما، بينما «ديانا» حالة ينعدم فيها التفكير بجميع أنواعه. أي أنها في الحقيقة نوع من «اللا ذهن». وللكلمة اليابانية «زن»[٢] أو «الزنيّة» هي الأخرى نفس لفظة «ديانا» مع التحوير وقد تحولت في اللغة الصينية إلى «تشوان»[٣]. فالذهن دون الفكر سوف يكون مرآة غير عاكسة. والتأمل الواقعي يعني نفس هذه الحالة وهو بالضبط نعمة إلهية. لابد للانسان من التأمل ومن انتظار مثل هذه الحالة في صمت حتى يهديها الله إليه.

فاتباع مذهب «الزنيّة» يقضون سنوات طويلة «متأملين» في «صمت» و «هدوء». فتتوقف أذهانهم عن التفاعل والنشاط بتواؤد فتختفي ما يكتنفها من أفكار. وفي النهاية تختفي الانطباعات الذهنية يوماً ما بعد عشر سنوات، أو عشرين أو ثلاثين، لا أحد يعرف بالضبط. في هذه الحالة يخلو الذهن من كل زحام وتشوش فكري حيث يسود فيه الصمت والهدوء لا غير. وعندما لا يكون هنالك وجود للذهن ينعدم وجود «الأنا» أيضاً. فذهنك هو «أنا»ك. واضمحلال الذهن يعني بالفعل قمع النفس و «الأنا».

فالمذاهب الشرقية تولي اهتماماً كبيراً بهذا الأمر، وهو كيف يمكن قمع «الأنا» والتخلص من شره. و «التأمل» الحقيقي لا يعدو كونه قمع «النفس».

1_ Dhyana

2_ Zen

3_ Chuan

والتأمل الواقعي هو الصيرورة إلى «لا أحد» وإلى الفناء[١].

إذاً، أساس وقوام منع التفكير والتخلي عن الذهن ليس نبذ عملية التفكير وتفعيل الذهن بل مواجهة فرض البنى والأطر والنماذج عليها. ففي حالة تحول تفاعل الذهن والفكر من كونه «عملية» إلى «انتاج» وحلول «التركيز على الانطباعات الذهنية» محل «قمع الانطباعات الذهنية» و «استعباد الأفكار» محل التحكم بالأفكار، فالتفكير يغدو عندئذ عملية خطيرة ومثبطة ويخفت وميض الإبداع والابتكار باعتباره تفاعلاً مستقلاً وحراً لذهن الإنسان.

يتضمن كتاب «حكاية الزنيّة» موضوع يحمل عنوان «التفكير بلا فكر»، جاء فيه:

تساءل راهب من «ياكوزان» وكان يجلس بقوة تامة بلا حراك في طور «الزازنية» الرائعة: بِمَ تفكر حالياً؟ رد «ياكوزان»: أفكر في صلب «اللا فكر».

أما الاستاذ «كودو سواكي» المعاصر لـ «زن» في اليابان، فإنه عندما قرأ هذه الحكاية لم يقدر على الخلود إلى النوم طوال اسبوع كامل قضاه في تقصي الجواب. ثم استسلم لفرط إعيائه، جراء أرقه لمدة أسبوع، على أرض مطبخ المعبد. وبينما دخل المطبخ راهب منشغل بالكلام، لم يره فارتطمت قدمه به بشدة. نهض «كودو» وامسك بساطور في نفس اللحظة. لقد أدرك طور التفكير في صلب «اللا تفكير». يقول هو نفسه: «إنني استوعبت هذه الحالة دون أن أكون قادراً على التعبير عنها.. إنها كوميض يضيئ ذهني فجأة»[٢].

---

١ ـ انظر: «الحب، رقصة الحياة».

٢ ـ «حكايات زن المائة»، بإشراف «دل آرا قهرمان»، مطبوعات «ميترا»، ص ١٤٠، ١٩٩٥.

ويقول «أوشو» في هذا الخصوص أيضاً:

«التبصر لا يتأتى من المشاهدة. التبصر لا يتحقق بالمطالعة بل بالنباهة وليس بالتركيز بل بالتأمل. فالإنسان يجب أن يكون متفتحاً فقط إزاء عظمة لا متناهية تسمى الحياة، أن يكون متفتحاً للأرض والسماء، متفتحاً لكل شيء. فأي شخص يتوجب أن يكون متفتحاً دون انطباع وحكم مسبق. عندئذ يتأتى التبصر.

فأنت بالتزام الانطباعات تمنع استبصارك، وبانتقائك تكون حائلاً. بإدانتك تكون حائلاً. وبتقييمك تكون قد منعت حصول الاستبصار. فمن يرغب في أن يهطل عليه الاستبصار كالمطر لابد أن يصبح شاهداً نقياً، لا غير، أن ينظر دون تفكير. انه مرآة تعكس ليس إلّا. إنه لا يستنتج، لا يعجل، لا يدخر العلم قط. إنه يواصل التعلم ويواصله ولكنه لا يدخر العلم أبداً[١].

---

١ ـ عن كتاب «السر».

«لا، لتقصي الكمال»

يقول الشاعر مولوي:

«... إذاً، الزيادات تكمن في النقائص»

***

جاء في «اتباع اوبانيشاد»: لو ترفع غاية الكمال عن الكمال المطلوب، فانها تبقى أبداً غاية الكمال. أما عن الإنسان فإن كل ما يتم ويكتمل يحكم عليه بالموت، فلا يواصل العيش إلّا ما اتسم بالنقص. فطبيعة الحب هي أن يبقىٰ غير تامٍ[1].

للتكامل والارتقاء يجب التجرد عن الشعور بالاكتمال! فالانسان لا ينعم بالغنىٰ ما لم يشعر بالفقر. ولا يهتدي إلى الكمال ما لم يشعر بالنقص ولا يمتلئ ما لم يشعر بالخواء. ولا يستغني ما لم يشعر بالغنى ولا يعتمر ما لم يشعر بالانهيار ولا يصير إلى «الكل» ما لم يختبر صيرورته إلى «اللا شيء» ولا يصبح «نصيراً للجميع» ما لم يُحرم من النصير ولا يتسامىٰ ما لم يتعمق ولا يتمتع بالرفعة ما لم يتواضع ولا يرقى إلى شأن «العالِم» ما لم يبدأ بالجهل ولا يعلو إلّا بعد أن يغور.

---

١ ـ عن كتاب «السر العظيم».

فكما يقول «اوشو»: لو نكون متفتحين ومتجردين عن «الجميع» تماماً، سوف نشهد عندئذ حدثاً مدهشاً. ففي هذا الوجود الخاوي يبدأ الحب والوجود بالسيلان[١].

ففي هذا التجرد عن النقاب والأطر تروي عملية «الصيرورة» الوجود بكله بسرعة سيّالة ومتأججة وتحثه للتوالد والتنامي.

فتقصي الكمال في هذه الحال يعني نبذ الواقعية، نبذ الاستيعاب الطبيعي، نبذ المحدوديات والعوائق، والتي يجب ان تستعرض برؤية واقعية وبعيداً عن الطموحات الوهمية والاتجاهات الخيالية. فالتوقع المتخطي لحدود الاستيعاب والتوقع «الزائد عن الحد» من الذات يجعلنا نغور لأكثر مما نحن فيه. أما إذا كان هذا التوقع بحسب القابليات، وهذه القابليات مرفقة بدافع الكمال، يمكننا عندئذٍ التقدم خارج حدود «التوقع»، والارتقاء لأعلى من مستوى القابليات.

فباتساع رقعة «الحاجة»، و «الشعور بالنقص» عند الإنسان تقوى رغبته في الإغناء وطلب الكمال. وبتعمق الشعور بالفقر والخواء والنقص تزداد لهفة الطلب ورغبة الاستدراك والتقدم تأججاً عند الانسان. وكما يقول «داو»: (عندما كان الإنسان يجهل جميع الحقائق حول العالم كان يتمتع بمعرفة تامة[٢].

فكما يقول «ديباك جوبرا» في كتاب «خَلق الكثرة»: يضمر كل فشل بذرة النجاح في باطنه وكل نقص يحتوي بذرة الكمال في داخله. فخبرات فشلنا لها مواطئ أقدام في الخلق بحيث تقربنا من أهدافنا. فليس هنالك في الحقيقة شيء يسمى الفشل. فما نعتبره فشلاً ونقصاً هو نظام يمكن بواسطته الاهتداء

---

١ ـ «الحب، رقصة الحياة»، اوشو.

٢ ـ انظر كتاب «الاستاذ المسن»، لاوتزو.

إلى الطريق الصحيح وطريق الكمال.

تقتضي الوتيرة الطبيعية للحياة الطبيعية لأي انسان طبيعي ان ينمي نفسه بما يمكنه الصيرورة إليه دون التقيد بالماضي وبعيداً عن الضغوطات وعن توقعات نفسه التصنعية. فالحياة عملية متناقضة وزاخرة بتقلبات لا مفر منها. ولا يمكن تبني أي هدف محدد مسبقاً ضمن توقعات تتجاوز حدود القدرة والقوى الذاتية فسوف يؤول الأمر عندئذ إلى اختبار اليأس والقنوط والاكتئاب حسرة على ذلك المطمح الخيالي. في مثل هذه الحالة يكون تقصي الكمال هو النقصان والانحطاط بعينه!

«لا، لتحاشي الظلام»

يقول الشاعر حافظ الشيرازي:
«في الهجر وصل وفي الظلام نور».

***

يقول العارف الهندي الكبير «اوشو»
«كلنا ألفنا أن نعتبر النور ظاهرة إلهية. ولكنها تبقى على نحو ناقص حتى تعتبر الظلمة هي الأخرى ظاهرة إلهية. لأن الظلام يلعب دوراً في الوجود على نفس قدر النور. فالظلام والنور، في الحقيقة، لا يمثلان ظاهرتين منفكتين عن بعض بل قطبين مختلفين لطاقة متوحدة. فالظلام أحد قطبي هذه الطاقة بينما النور قطبها الآخر.

يتوجب على الإنسان إنماء هذه القابلية في وجوده وهي أن يضمر حباً للظلام أيضاً. ففي هذه الحالة يستضيئ الظلام بنور الحب ويتحول ماهوياً إلى هيئة نور. ويُقصد بالظلام كل الحالات التي تولد عن الإنسان مثل هذا الشعور، مثل الموت. فلو افتقدت قابلية تقبل الموت مثل الحياة، لا يمكنك بلوغ الكمال. فهنالك ما ينتقص وجودك. وفلسفة حياتك ما دامت تتقبل الأزهار فقط وتلفظ

الأشواك فإنها ناقصة. والحياة القائمة على فلسفة ناقصة تولد أشخاصاً يتسمون بالنقص. والإنسان الناقص انسان كئيب غير مبتهج. فالسرور الحقيقي يكمن في التمتع بالكمال.

يجب تقصي جميع الثنائيات. فعندما ينعم الإنسان باستيعاب باطني يمكّنه من تقبل الثنائيات دون أي انتقاء، ولما كان متنبهاً تماماً لوجود التعارضات في الوجود، سوف يكون بإمكانه العيش فيما ورائها أيضاً»[١].

على هذا، بنظرة موحدة للتناقضات والتعارضات العرضية في عالم الخلق يمكن اكتشاف طريق الخلاص من مطبة الازدواجية. إن الوحدة في صلب التعددية والتعددية في صلب الوحدة، وهو قوام تفكير العرفاء الموحدين، لدليل على انتفاعهم من طاقة الحياة بالشكل الأمثل والأقوى. فليست هنالك من ظاهرة تعتبر ذاتياً، شراً. فجميع آيات ومظاهر وطبائع الوجود تزخر بالحسن والخير. ولكن يجب الارتقاء من «الرؤية الإنسانية» إلى «الرؤية الإلهية»، ليمكننا الاهتداء إلى الوجود المتوحد مع جميع محتوياته ومظاهره المتعارضة. فتضيف العالم إلى ظلام ونور، شر وخير، مادة ومعنى، ارتقاء وسقوط، حزن وسرور، انقباض وانبساط ينشأ عن «الرؤية المتمحورة حول الذات» إلى الوجود، أي تحليل كل شيء وأمر بعمل حساب للمنافع بأسلوب أناني.

يقول «اوشو»:

«إنني أقول لكم أنه ليس هنالك في العالم أي شر أو قوة شريرة. بل كل ما هنالك هو أنه يوجد أشخاص واعون وأشخاص يغطون في سبات عميق. ومن يستغرق في النوم لا قدرة له. فطاقة الوجود بأسرها ينعم بها الواعون

---

١ ـ عن كتاب «السر».

المتنبهون. فأي شخص واع بإمكانه توعية العالم كله كما تتمكن شمعة واحدة من إضاءة ملايين الشموع الأخرىٰ دون أن ينقص نورها حتى بقدر ضئيل[١].

ويوضح الزعيم الديني الانكليزي «جورج فوكس» مؤسس الجمعية المسيحية المسماة «جماعة الأصدقاء»، ارتباط الظلام والنور بأسلوب تمويهي ومتشابك حيث يكتب في نوطاته اليومية:

«انني أتحسس وجود بحر من الظلام والموت. ولكنني كالشاعر «هنري فون»، من المعاصرين لي، كنت قد رأيت كذلك بحر النور والحب اللا متناهي والذي يطفو على بحر الظلام».

كان جورج فوكس يرىٰ أن بإمكان الجميع أن يستوعبوا الحب والود الالهي اللا متناهي بأسلوب ما[٢].

وهذا الشاعر مولوي يتقصىٰ قوام النور والحياة في باطن الظلام. ويرى أن الظلام صنو لماء الحياة، حيث يقول:

در شب بد رنگ بس نيكى بود آب حيوان جفت تاريكى بود[٣]

يتضمن الأدب الفارسي، منذ القدم، الكثير فيما يخص وجود «مستساغات» أيضاً في باطن الظلام واللا مستساغ وكذلك ما يصطلح عليه «ماء الحياة» في جوف الظلام. وقد عرض الكثير من الشعراء والكتّاب لهذا الموضوع في كتاباتهم وكلامهم. كان القدماء يؤمنون أنه هنالك على وجه الأرض ينبوع يفوز بالحياة الأبدية كل من شرب من مائه. ولم ينعم حتى الآن أحد سوى النبي الخضر عليه السلام بهذه النعمة. وهذا الينبوع يقع في جوف ظلمات

---

١ ـ المصدر نفسه.

٢ ـ نقلاً عن ديفيد منيغ وايت، صحيفة «ايران»، العدد ١٩٦٢.

٣ ـ معناه:

ـ «كان في الليل ـ بَشِع اللون ـ حُسن كثير، وكان ماء الحياة صنو الظلام».

لم يوفق في اجتيازها وصولاً لذلك الينبوع أحد.

وللشاعر سعدي الشيرازي أيضاً أبيات شعرية رائعة في هذا السياق، حيث يقول:

ز كار بسته مينديش و دل شكسته مدار

كه آب چشمه حيوان درون تاريكى است[١]

نعود ثانية إلى كلام «أوشو»:

«الحب يضمر في ذاته كلا الحالتين: الظلام والنور. الحب يتضمن الليل والنهار، والموت والحياة. لابد للإنسان أن يبدأ من جزء الظلام. فالانطلاق يبدأ دوماً من الظلام. بالضبط كما تبدأ البذور حياتها من باطن التربة أو يشرع الطفل العيش في داخل رحم الأم. فجميع الانطلاقات تبدأ من الظلام. فالظلام هو أحد أهم المستلزمات الضرورية لبداية أية انطلاقة».

فبداية أية قضية تكون محفوفة دوماً بالرموز والغوامض. ولهذا تتطلب وجود الظلام. كما أن بداية أية قضية تتسم بمنتهى الحساسية والدقة. وهذا هو أحد براهين حاجتها للظلام. فللظلام عمق متميز وقابلية كبيرة على رفدكم. فالنهار يصيبكم بالتعب ولكنكم تجددون قواكم وترفدون بالحياة ثانية خلال الليل.

من هنا، إبدأوا انطلاقاتكم في الظلام واعلموا أن إشراقة الصباح قريبة الأجل. أما إذا كنتم تهابون الظلام وتفرون منه، فإنكم لن تبلغوا ضياء النهار

---

١ ـ معناه:

ـ «لا تفكر في الأمور المعقدة ولا تهشمن قلبك، فماء ينبوع الحياة (يجري) في جوف الظلام.

أبداً. فلو أراد الانسان اجتياز الليل دون اختبار ظلامه سوف لن يقدر أبداً على اختبار النهار. ينبغي على الإنسان ان يتوغل إلى جوف حلكة الروح ليجتازها وصولاً إلى إشراقة الفجر. سوف تذوقون طعم الموت أولاً ثم تختبرون الحياة. فالمسيرة الطبيعية للأمور تبدأ بالميلاد ثم تتواصل الحياة ولكن في العالم الباطني والترحال الروحي يكون الأمر خلافاً لذلك بالضبط حيث تختبرون الموت أولاً ثم تذوقون طعم الحياة[١].

إنكم تختبرون الظلام بادئاً في واقع الحال ثم يتولد النور من باطنكم، بالضبط كما تنبثق الراحة من صلب الصعاب، والحياة من صميم الموت، والمحبة من المحنة، والسرور من الهموم، والوصل من الهجر والنور من الظلام[٢].

وكما يقول الشاعر حافظ:

حافظ، شكايت از غم هجران چه می‌کنی
در هجر وصل باشد و در ظلمت است نور[٣].

---

١ ـ عن «السر».

٢ ـ تشير إلى ذلك الآية: (ليُخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ من النور...) «سورة الطلاق، الآية ١١».

٣ ـ معناه:

ـ «لِمَ تشكو هم الهجر يا حافظ، ففي الهجر وصل وفي الظلام نور».

«لا، للحياة العقلانية»

يقول توماس اكويناس:

«ينبغي أن لا يقوم ايماننا على العقل الراسخ بل لابد ان يستند العقل إلى الايمان.

ويقول الشاعر حافظ الشيرازي:

عـــــاقلان پـــــرگار وجـــــودند ولى

عشق داند كه در اين دايره سرگردان‌اند[1].

***

لكبار الفنانين ارتباط متواصل مع هذا التساؤل: هل للحياة أساساً مفهوم خاص أم لا؟ لم يتكلم في هذا الخصوص أحد بتعبير أكبر تأثيراً من الروائي الروسي الكبير ليو تولستوي:

«لقد تحيزت ودافعت في كتاباتي عما كان بالنسبة لي حقيقة فريدة. وهي انه ينبغي للإنسان أن يعيش بنحو يأمن له ولعائلته الحظ الأوفر من الهـدوء

---

١ ـ معناه:

ـ «العـقلاء دوارات (فـرجـارات) عـالم الوجـود، والعشـاق الواهـون يـعلمون أنهـم تائهون في هذه الدائرة».

والأمان. هكذا واصلت الحياة حتى حدث لي أمر عجيب. بادئاً ذهلت لدقائق ثم توقفت الحياة بالنسبة لي، كأنني لا أعرف كيف أعيش. كنت مشوشاً ومكتئباً بشدة. ولكن تلك اللحظات انقضت وواصلت الحياة ثانية كما مضىٰ منها. وبعد ذلك تكررت مراراً تلك اللحظات، لحظات التشوش والانبهار وكل دفعة على نحو خاص. ولحظات التوقف وسكون الحياة هذه تظهر في إطار استفسارات متماثلة: لماذا؟ حسناً، ماذا بعد ذلك؟ وما فائدة كل هذه المساعي؟

في البداية، كنت أتصور أن هذه التساؤلات ليست في محلها وغير هادفة. ولكن هذه التساؤلات صارت تتكرر رويداً رويداً وهكذا تعمقت ضرورة التوصل إلى ردود لها، ولكن لم يكن هنالك أي رد عليها. وتكالبت هذه التساؤلات مثل قطرات تتساقط في مكان واحد وتتحول بالتالي إلى لطخة داكنة. كنت أشعر بخواء الأرض تحت قدمي وانني بلا سند. كنت أشعر ان ما كنت اعتبره قوام حياتي لم يعد موجوداً، لا شيء يمدّني بالأمل في الحياة.

كل ذلك حدث وأنا محاط بأمور توضع على حساب السعادة والهناء التام: زوجة رؤوفة وجديرة بالحب وأبناء جيدين وكذلك دار ومزرعة كبيرة توسعت دون أن أبذل من أجلها عناءاً بنفسي. كنت أحظىٰ باحترام جيراني وأصدقائي، والناس يولون لي احتراماً أكثر مما مضى. وكان بإمكاني أن احتسب نفسي شخصاً معروفاً ذائع الصيت بعيداً عن أي غرور وانخداع. في مثل هذه الأوضاع والأجواء أدركت أنني لم أعد قادراً على مواصلة الحياة.

هذه الحالة الفكرية النفسية ظهرت لي على هذا النحو: حياتي لعبة أو مزاح أبله وحقير لشخص ما إزائي. كان يخيل إليّ عفوياً أنه هنالك في مكان ما شخص يرقبني من الأعلى ويهزأ بي، يراني عشت ثلاثين أو أربعين سنة، تعلمت ونَمَوْتُ جسمياً ونفسياً. ومع بلوغ فكري وضميري الاستحكام الآن وصلت إلى ذروة الحياة. صرت أقف على هذه الذروة كأي أبله تام

المواصفات، وأرى بوضوح أن حياتي لم تثمر قط ولن تثمر أبداً. وهذا هو مدعاة تسليته وضحكه.

لم يكن بمقدوري أن أهتدي لمفهوم أي من الأمور في حياتي. ما كان يثير دهشتي هو: لماذا لم ألتفت إلى هذه القضية من قبل. المرض والموت يحلّان (عاجلاً أم آجلاً) بأحبتي وبي (كما كان يحدث في الماضي أيضاً) وعندئذ لا يتبقى سوى الديدان ورائحة التعفن. كل جهودي تودع سجل النسيان عاجلاً أم آجلاً. وسوف اختفي من ساحة الوجود. فلماذا أقلق بشأن هذه الأشياء؟ كيف يتسنى للإنسان أن يغفل عن رؤية هذه الحقائق ويواصل الحياة على نفس الوتيرة. إنه لأمر عجيب حقاً! الإنسان يقدر على العيش ما دام ثملاً لا يعقل ولما يفيق من ثمالته ويعود لرشده يتنبه مرغماً أن جميع هذه الأمور إنما كانت خدعة ليست إلّا. وأية خدعة حمقاء!

خاطبت نفسي: أسرتي؟ ولكن أسرتي، زوجتي وأبنائي كل منهم انسان أيضاً. إنهم في نفس هذه الظروف التي اختبرها أنا بالضبط: ينبغي عليهم أما أن يواصلوا الحياة مع الكذب أو أن يلتفتوا إلى هذه الحقيقة المهيبة. لماذا ينبغي لهم مواصلة العيش؟ لماذا يتوجب عليَّ أن أحبهم؟ ولِمَ يتعين عليّ أن أرعاهم؟ هل بسبب ما أشعر به من يأس وقنوط أو لتكدر فهمي وتعكره؟ أنا أحبهم. إذاً، لا أقدر على إخفاء الحقيقة عنهم. ففي كل خطوة على طريق الفهم أدلهم إلى الحقيقة. وهذه الحقيقة هي الموت.

«الفن والشعر؟». لمدة طويلة كنت أحاول أن أقنع نفسي بما أناله من خبرات نجاح بواسطتهما. وهذا في النهاية هو ما أقدر عليه ولو يحل بي الموت ويأخذ معه كل شيء، ومنها أعمالي وكذلك ذكري وذكرياتي. ولكن سرعان ما شعرت أن هذه أيضاً خدعة، لا غير. إتضح لي أن الفن زينة الحياة. ولكن الحياة كانت قد فقدت كل بهرجها بالنسبة لي. فكيف كان بمقدوري أن أخدع الآخرين ما دمت لا أعيش كما يروق لي وكان نمط غريب من الحياة

قد فرض نفسه عليّ؟ (فمتى ما نتمتع بالإيمان، يكون للحياة مفهومها).

كان شرح وعرض الحياة في إطار الشعر وخلال الأعمال الفنية مدعاة ابتهاجي ونشاطي وكنت أشعر بالسرور عندما أنظر إلى الحياة من مرآة الفن الصغيرة ولكن عندما قررت أن أتوصل لمفهوم للحياة، وعندما تنبهت لضرورة أن أكون أنا نفسي، صارت تلك المرآة برأيي مؤلمة، لا طائل منها. صرت أعجز أن أقنع نفسي بما كنت اراه في تلك المرآة. كنت أشعر بالعجز واختبر حالة غير عقلانية. وهذا أمر طبيعي جداً أن اشعر بالسرور والابتهاج ما دمت أؤمن من أعماق وجودي بأن للحياة مفهومها. في مثل هذه الحالة كان يشغلني خداع الألوان وعبث شؤون الحياة المضحكة، الأليمة، الشجية، الجميلة والمدهشة. ولكن مع التفاتي إلى أن الحياة عابثة ومهيبة، لم يعد بمقدوري ان انشغل بما أراه من عبث في هذه المرآة الصغيرة».

كان تولستوي يشعر أن الحياة بالنسبة له، وهو أحد كبار الفنانين في العالم، لم يعد لها أي مفهوم. كانت الأسرة والفن تشغله غالباً وتدعم وجوده. كان قد توصل من خلال حبه لأسرته إلى «الحقيقة الواحدة». كان كلامه، خلال ابداعاته الفنية ينساق دوماً عن الإخلاص للأسرة والتعلق بها. وكان من جهة أخرىٰ، التفت خلال الأعمال الفنية للآخرين إلى انعكاسات الحياة وصورها، وهي مدعاة تفاؤله وبقائه، وقد وفرت له مفهوماً ما. ولكنه بتوصله إلى حقيقة أنه لم يعد يعرف للحياة مفهوماً، لم يعد فنه ولا أسرته يبثانه الأمل في مواصلة العيش. ولما كانت الأشياء جميعاً تفقد مفاهيمها التي يعبر عنها في فنه، ولا يجد في فنه أي شيء يضفي مفهوماً على حياته، تخلى عن الكتابة وابتلي باكتئاب شديد.

(يعتبر جواب تولستوي على استفسار حول معنى الحياة، رداً إلهياً توحيدياً). ففي رده التعبدي لله يقول: (إنما تحرز حياة الانسان مفهوماً لأن الناس جزء من المخطط والقضاء الالهي. قوام هذا القضاء هو تمتع جميع

مخلوقات العالم بالهدف والقيمة. وهدف بني الانسان، على وجه الخصوص، هو أن يعرفوا الله ويتوحدوا معه تماماً. فالحياة على وجه الأرض، ولو كانت قصيرة، فإنها تتسم بالأهمية والقيمة لأنها توفر أرضية للتوحد مع الله. فحياة الإنسان، إذاً، ليست فاقدة للمعنى والقيمة والاعتبار لتنتهي إلى الفناء. فلحياة الإنسان مفهومها ما دامت ذات غاية وهدف، هدف يربطني بكلٍ أهم، ولي أنا في باطن هذا الأمر الكلي مكانة خاصة). هذا الرد التوحيدي هو نفس الرد الذي استخلصه تولستوي من الاكتئاب. فكما يكتب هو نفسه:

«المعرفة العقلية مكّنتني من فهم هذه الحقيقة وهي ان الحياة لا مفهوم لها. توقفت حياتي وكنت أنوي إفناء نفسي. ولما نظرت إلى الناس وإلى الانسانية ورأيت أن الناس يواصلون الحياة ويقولون أنهم يعرفون معنى الحياة، خاطبت نفسي: كنت أواصل العيش عندما كنت أعرف معنى الحياة. فالايمان كان يضفي المعنى على حياة الناس وحتى على حياتي ويجعل الحياة ميسورة. ولكن.. ماذا كان الايمان؟ تنبهت ان الايمان يعني معرفة معنى حياة الإنسان، وبالتالي لن يفني الإنسان نفسه بل يواصل العيش. إذاً، من يواصل العيش يؤمن بشيء ما. ولو كان يفتقد الايمان بأنه يعيش من أجل هدف وغاية ما، لما كان يقدر على العيش.

عندئذ بدأت بالتعرف على المؤمنين من بين الفقراء، أناس بسطاء من عامة الناس، من الزوار والرهبان، أناس ملتزمين بالدين ومزارعين. تدارست عن قرب حياة هؤلاء الناس ومبادءهم. كنت كلما أكثر من الدراسة يتعمق اقتناعي بأنهم أصحاب إيمان حقيقي وإيمانهم يحظى بالأهمية بالنسبة لهم. وبإمكانه لوحده ان يضفي المعنى على حياتهم ويجعلها ميسّرة.

لقد تعلقت بهؤلاء الناس. واصلت العيش لسنتين، على هذه الحال. حدث خلال هذه الفترة انقلاب في باطني. ما حدث لي هو أن الحياة في أوساطنا، أي أوساط الأثرياء والوجهاء، صارت لا تصيبني بالغثيان فقط بل لم تعد

تعني أي شيء بالنسبة لي. وجميع أعمالنا، تأملاتنا، علومنا وفنوننا، كلها صار لها مظهر آخر بالنسبة لي. كنت أرىٰ أن كل تلك الأمور لم تكن إلّا إطلاقاً للميول والرغبات الشخصية. ولا يمكن الاهتداء لمعنى خاص تنطوي عليه. أما عن حياة الكادحين فإن الحياة هي هذه. وكانت الحقيقة هي التي منحت الحياة معناها. وقد استوعبت أنا ذلك[1].

١ ـ من مقال «عندما يفقد الإنسان معنى الحياة» لمانويل ولاسكز، صحيفة ايران، العدد ٢٠١٠، الصادر بتاريخ ٣٠ ـ ١٢ ـ ٢٠٠١.

«لا، لا يلاء الاهتمام»

كس نداند كاندر اين بحر عميق سنگريزه قدر دارد يا عـقيق[1]

ويقول مكبث:

«لا شيء يوجد إلّا ما لا يوجد».

***

اما «اندرا جيد» فانه يقول: «إجهدوا أن تكون العظمة في نظرتكم وليس فيما تنظرون إليه!». ففي هذه النظرة العظيمة كل شيء يكون مدهشاً وباهراً. فمن يتطلع بنظرة عظيمة تتعاظم وتتعمق عنده حتى أدق وأصغر المخلوقات وأبسط الأحداث وأتفهها».

ويمكن الكشف عن مثل هذه الرؤية في تعاليم «الزنية»:

«لزم أحد اساتذة «الزنية» ويدعىٰ «لين شي» فراش الموت. اجتمعت عنده الألوف من مريديه ليستمعوا إلى مواعظه الأخيرة. ولكن «لين شـي» كـان مستلقياً يرسم ابتسامة على شفتيه دون أن ينطق بكلمة واحدة. بمشاهدة هذا

---

١ ـ البيت للشاعر عطار النيشابوري، ومعناه:

ـ «لا أحد يعلم أفي هذا البحر العميق، للحصى قدره أم للعقيق؟»

الوضع إلتفت إليه أحد أصدقائه القدامى وكان هو الآخر استاذاً، وقال: أنسيت أنك يجب أن تدلي بكلامك الأخير؟ كنت أقول دوماً أن ذاكرتك فيها نقص. أَوَ نسيت أنك مشرف على الموت؟

قال «لين شي»: استمع فقط. كان هنالك على السقف سنجابان يتخاصمان، يعدوان ويصرخان. «ما أروع ذلك». نعم. قال «لين شي» ما أروع ذلك!». ثم فاضت روحه.

للحظة واحدة، عندما قال «لين شي»: «استمع فقط». ساد الصمت التام. تصور الجميع أنه سينطق بكلام فريد. ولكن لم يحدث ذلك. كل ما حدث هو: كان هنالك على السقف سنجابان يتخاصمان، يعدوان ويصرخان. ابتسم لين شي وفاضت روحه.. ولكنه أبلغ الحاضرين خطابه: وهو أن لا يفرّقوا بين صغير وكبير أو تافه وهام. فكل شيء هام. ولحظة موت لين شي لعلى قدر من الأهمية كما هو وجود سنجابين على السقف. كل شيء في عالم الوجود متوحد ومتماثل. فمستخلص فلسفته وتعاليمه كله كان: لا يوجد كبير وصغير وهام وغير هام. بل أن انطباع وتعبير بني الإنسان، هما اللذان يمنحانها الوجود[١].

من هنا. لو يتحرر ذهن الانسان ونظرته من الانتقاء والتقييم المُركَّز على الذات. فكل شيء في نظره يكون مظهراً للعظمة والانبهار. بدءاً بأدَقّها وحتى أضخمها. يكفي ان نتحرر من الحكم المسبق والانتقاء المسبق وكذا التقييم المسبق والتصورات المتقدمة. اي في الحقيقة (بعدم ايلاء الأهمية يكتسب كل شيء الأهمية!

---

١ ـ عن كتاب «الحب، رقصة الحياة».

«لا، للتقصي»

يقول بوبن:

«نحن لا نحسن النظر إلّا عندما لا نتقصى الحقيقة بنظرنا».

وعن «جرمي استرانغ»:

«أفضل الموضوعات تتبادر إلى أذهاننا عندما لا ننوي الكتابة أو تقصي الموضوعات»

***

وكان بابلو بيكاسو، وهو من أغزر فناني القرن العشرين إنتاجاً وأكثرهم ابداعاً، صاحب نظرة، متباينة ومثيرة للدهشة، إلى عالم الوجود، يهدف منها كشف المفاهيم الخفية. كان يرىٰ أنه: للتوصل إلى الحقيقة يجب تجنب التقصي والبحث بأسلوب قصدي ومبرمج له. فالحقيقة لا يمكن التوصل إليها عن طريق الأبحاث العلمية بل بعيداً عن المعادلات والنماذج المحددة مسبقاً.

يقول بيكاسو في حوار معه تحت عنوان «لا تتقصوا، إهتدوا»: التقصي في الرسم لا معنى له على الاطلاق، برأيي. الأمر الأساس هو الاهتداء. من البديهي انه لا يروق لأحد أن يكون تابعاً لشخص يعلق أنظاره، على مر حياته بأسرها، على الأرض يبحث عن محفظة نقود قد تأتي له بالحظ

والهناء!

ويردف قائلاً:

«من بين جميع الذنوب التي اتهموني بها، لم يكن أي منها أكذب من قولهم أنني جعلت روح التحقيق والبحث هدف عملي الأكثر أصالة. إنني عندما أرسم أريد أن أعرض ما توصلت إليه لا ما أتقصاه». ففي حقل الفن لا تكفي النية بل كما نقول نحن الاسبان: «الحب يجب اثباته بالحقائق لا بالدلائل».

ففكرة التحقيق والبحث تُخرج الواقع (الرسم) غالباً عن مساره وتُفسد على المفكر (الفنان) سيره في وادي الرياضة الذهنية. وقد يتحدد بنفس هذا الأمر أيضاً أهم التباس وقع فيه الفن الحديث. فروح التحقيق أدى إلى انسمام روح اولئك الذين لم يستوعبوا العناصر البناءة والبديهيات في الفن الحديث مما ارغمهم على ان يبذلوا جهودهم في سياق يكون ما لا يمكن رؤيته وبالتالي لا يلعب أي دور ما. وهؤلاء الأشخاص يتحدثون بالاستناد إلى الاتجاه الطبيعي في التعارض مع الفن الحديث[١].

كلام بيكاسو هذا وبعبارة واضحة يقلّب نظرة الانسان إلى حقائق الوجود والظواهر الاجتماعية رأساً على عقب. إنه يعرض لنا كيف أخرجت الأبحاث الاصطناعية، الواقع السيّال من مَولِده الطبيعي لنقولبه في المختبرات كما نرغب وكما تسمح لنا الأدوات والأساليب الثابتة المتصلبة بحسب المتابعات الرقيقة والمحصنة.

وكما يقول «هنري برجسون» لا يقوى الإنسان على تدارس الواقع السيّال بأساليب المختبرات والأبحاث التجريبية المتأثرة غالباً بالظروف الاصطناعية. ولهذا يقول بابلو بيكاسو: «بدلاً عن الاستحواذ على الظواهر ومتابعتها يجب توفر ظروف تميننا على التوصل لكنهها السيّال. لأن

---

١ ـ «الفنانون يتحدثون عن الفن»، روبرت جلدواتر.

«الاهتداء» عملية تلقائية، واكتشافية وباطنية بينما البحث والتقصي عملية قصدية وارادية وتتأثر بالأساليب الخارجية الاكتسابية.

فالذهن المنشغل بالبحث الخارجي يتخلف عن الاندفاع الباطني. فالطريق الوحيد للتوصل والاهتداء إلى الحقيقة هو «عدم التقصي». فالتوصل إلى الحقيقة تتوقف إمكانية تحققه في «عدم المعرفة» كما يذكر سقراط. فالكشف عن الحقيقة أمر لا يتحدد في موضوع «الزمان» أو يتحقق بالمناهج الخارجية في إطار الأبحاث الاصطناعية.

كما يقول السينمائي الكبير «فرنان ليزه» (١٨٨١ ـ ١٩٥٥): هذا السؤال «ماذا تعرض هذه الصورة؟» سؤال لا معنى له تماماً. فمثلاً لنفترض انني أنتج فيلماً بأبعاد مكبّرة جداً لتلألؤ إشعاعي ملفت ينبعث عن ظفر سيدة، اظفر تم تدريمه (تلوينه) وتلميعه ببراعة وبالاساليب الحديثة، ثم أعرضه على الشاشة مكبراً لمئة ضعف واطلق عليه عنوان «جزء من كوكب تم تصويره في كانون الثاني من عام ١٩٣٤». سوف ينال كوكبي إطراء الجميع. أو ربما سميته «منظر تجريدي». عندئذ سوف تثني عليه مجموعة وتعرضه مجموعة أخرى للانتقاد. ثم أقول الحقيقة: ما ترونه هو اظفر الاصبع الصغير لسيدة تجلس إلى جانبكم. بالطبع سوف يغتاظ المشاهدون ويتألمون. لأنهم تعرضوا للسخرية والانخداع ولكنني واثق أنهم لن يعودوا بعد هذا قط لطرح هذا السؤال الأبله: ماذا تعرض هذه الصورة؟» لم يكن عرض شيء معين هو هاجس الفنون التشكيلية، والشعر والموسيقى قط بل قضيتهم كانت تكمن دوماً في ابداع شيء جميل، باهر أو تمثيلي...

«ولو انني انتزع شجرة عن مشهد ما ثم اقترب من تلك الشجرة. سوف أرى عندئذ أن للحائها شكلاً تشكيلياً وزخرفة رائعة وأرى أن لأغصانها حركة شديدة لابد من الالتفات لها ولأوراقها أيضاً زينة خاصة.

إننا عندما نضيع بين التواءات «الموضوع» تفقد هذه العناصر قيمتها في

الابداع الفني. هنا يحرز «الاتجاه الواقعي الحديث» مكانته. هنا وبعيداً عن أنواع المجاهر العلمية والأبحاث التنجيمية، التي تعرض على مر الأيام أشكالاً حديثة عن الظواهر وبإمكاننا أن نستفيد منها في أفلامنا ورسوماتنا، هنا يمكن اكتشاف الحقيقة من الباطن دون بذل أي مجهود قصدي لنقل الأفكار أو التوصل لتحليل ما من الآخرين.

فالأشياء العادية، الأشياء التي تنضم اعتباطياً إلى مجموعة ما، تكون غالباً أجمل من أشياء كثيرة تسمىٰ جميلة. ولهذا تتلقى النياط»[١].

واكتشاف الحقيقة وارتباط الاشياء مع بعض أيضاً يخضع لنفس هذه القاعدة. أي دون تخطيط تحقيقاتي وأساليب المختبرات والمناهج التجريبية التي تتكون في دهاليز «الواقع المتصلب» الضيقة لا «الواقع السيّال». فلنأت بآخر كلام عن الجمال (الحقيقة) عن الأديب جبران خليل جبران:

«أين تفتش عن الجمال، وكيف تقدر أن تهتدي إليه ما لم يكن هو نفسه طريقاً لك ودليلاً؟

وكيف تستطيع أن تتحدث عن الجمال ما لم ينسج لك ثوباً لائقاً بخطابك؟...

والجمال هو الأبدية تنظر إلى ذاتها في مرآة.

ولكن أنتم الأبدية وأنتم المرآة[٢].

من هنا، فإنه كما يقول «جون كتيس»:

(الجمال حقيقة،

والحقيقة جمال،

إننا لا نعلم شيئاً غير هذا ولسنا بحاجة إلى شيء غير هذا».

---

١ ـ المصدر السابق نفسه.

٢ ـ عن كتاب «النبي»، موضوع الجمال.

إذاً، ما يقرّب الإنسان إلى الحقيقة هو إذكاء روح الجمالية وحب الجمال لديه. وهو ما ينبع من تفاعل باطني وذوق فني وليس من مجهود مختبري ومعادلات تحقيقاتية.

والتعارض ما بين «تقصي الحقيقة» والبحث للتوصل إليها يكمن في نفس هذه الملاحظة.

أي عندما تسترسل جذور دافع اكتشاف الحقيقة في مصادر خارجية وتستند إلى مناهج وتخطيطات محددة مسبقاً، تضعف قوة الدافع الغريزي والاندفاع الباطني. لأن الإنسان لا يستوعب ما يتقصاه بل ما يستحق الإدراك.

ويكشف «بوبن» في كتاب «ضياء الوجود» عن موضوع رائع حول العمليات الطبيعية والتلقائية في سياق الكشف عن الحياة، حيث يقول:

«أكثر الكتاب يعقّدون أداء واجبهم. فليست هنالك أية كتابة في منتهى الدقة والصحة إلّا إذا لم تجانب مسيرة التغييرات المطردة في الحياة. فالأطفال ولعون بمناوءة طبيعة مسيرة الماء بقبضة من الحصى. ففي ذلك انتعاش خاص. لأنهم في هذه الحالة يسمعون صوت الماء ولكن في الواقع، اكتشافي يقول أن بإمكاننا نحن أنفسنا أن نتحول إلى مسيرة الماء».

بإلقاء نظرة إلى الأبحاث الحالية وتقصي الدوافع الخفية للباحثين نلتفت إلى ان أغلبية الأبحاث قد غدت وسيلة لكسب العيش لا للكشف عن الحقيقة. فالتحقيق من أجل التحقيق أصبحت له حكاية طبيب حاذق في علم التشريح لا يستند إلى علم التشريح لإفادة الشخص وفي سياق علاج المرض بل اندمج في فن التشريح حتى صار لا يبرح مجال نفسه. في مثل هذه الحالة، يغدو البحث والتحقيق عائقاً يحول دون الكشف عن الحقيقة.

«لا، للاستدراك»

«من دفع الشر بالخير، غلب».

***

منذ تغير اتجاه سيادة قانون العلة والمعلول، والفعل ورد الفعل، بما فيه من تعارض، من الحالة «الخطية» إلى الحالة «الدائرية»، انقلبت الكثير من التخطيطات والتصورات الذهنية التحليلية والتفكيكية إزاء الظواهر وارتباطاتها ومنها ظواهر العلوم السلوكية.

فالاتجاه العضوي والنظامي إزاء عالم الوجود، بدلاً عن الاتجاه الآلي التجزيئي، يدعونا إلى إعادة صياغة العالم واعادة إنتاج ارتباطات ما بين الظواهر.

ففي الاتجاه العضوي لا يتحدد ارتباط (A) مع (B) بالفعل ورد الفعل الخطي بينهما بل يمكن تحليله في حيز غير محدود ودائري وجشطالني. ففيما يخص ارتباط الاجسام الفيزيائية فانه يمكن اعتباره حالة من حالات الارتباط الخطي بين العلة والمعلول. ولكن هذا الارتباط لا يمكن تعميمه فيما يتعلق بارتباطات الكائنات الحية، سيما الانسان وهو صاحب السلوكيات الأكثر تعقيداً وسيالية.

فمثلاً، لو اننا نسدد ركلة إلى صخرة ما، فان الصخرة وبحسب قانون «الفعل ورد الفعل» لنيوتن سوف تسدد باتجاهنا ركلة (أي ضربة) بنفس تلك القوة. أما إذا سددنا الركلة إلى «كلب» ما بدلاً عن «صخرة» فإنه سوف تتكون دورة جشطالتية ومجال دائري الشكل في حيز «غير متثبت» يمكن لأي من اعضائه، بحسب العمليات المرئية وغير المرئية والخبرات والرؤى والمواجهات و...، أن يبدع، خلال تعاطيها مع بعض، سلوكاً لا يمكن تنبؤه ولا يمكن حصره من قبل بالأطر والتخطيطات الخطية والكمية.

وطرح هذا الموضوع يستعيد أهميته متى ما نمتنع عن تبني أي تحليل ميكانيكي للسلوكيات العضوية ونحول مسيرتنا من طريق أحادي الاتجاه إلى ساحة متعددة الاتجاهات ومتعددة الجوانب. ففي مثل هذه الآفاق الوضاءة اللا متناهية يمكن متابعة جميع الظواهر في حيز سيّال دائري. ويخرج الزمان والمكان أيضاً عن الارتباط الخطي والكمي ليصبح نوعياً ودائرياً.

وفي الارتباطات الإنسانية أيضاً يحل الفعل ورد الفعل المستقل، وفي الوقت ذاته المرتبط ببعض، محل الاتجاه القائم على تبني الفعل ورد الفعل المتبادل. فلو أردنا الالتزام بقانون الفعل في سلوكنا، فإن الكثير من المفاهيم الأخلاقية عند الإنسان مثل التضحية، الايثار، العطاء، التسامح، التغاضي، المحبة والود و... المكوّنة لانعكاسات بني الإنسان السامية والمنمّية للانعكاسات الانسانية، سوف تفقد معناها.

والقضايا التي تطرح حالياً في إطار حوار الحب والود إزاء «التصادم والعنف» إنما تنشأ من عزل هذين النمطين من الاتجاهات عن بعض.

فحوار الحب لا يتحكم فيه الفعل ورد الفعل باعتباره استدراك وانتقام بل تتوفر إثره ظروف ينقلب فيها هذا القانون، مفهومياً ووظيفياً.

وطرح حوار «اللا عنف» من قبل «مهاتما غاندي» لدليل على نفس هذا

المفهوم العرفاني المرموق وهو اننا لو نواجه العنف بالرأفة ونثمن التسالم بدلاً عن التنازع والمجابهة السلبية بدلاً عن المجابهة التعزيزية، عندئذ نشهد ظهور قانون جديد فيما يخص ارتباط المتغيرات الإنسانية. يوضح غاندي هذا القانون بأروع تعبير، حيث يقول:

«ما دامت الشعوب لا تحسن معرفة قانون الحب ولا تتبناه بوضوح خلال ارتباطاتهم القومية والدولية، أي في نظامهم السياسي، لا يتسنى لهم الاتحاد مع بعض بمعناه الواقعي وتوجيه نشاطهم بما فيه خير الانسان. فبامكان الشعوب أن تسمي نفسها متحضرة بقوة التزامها بهذا القانون، لا غير».

فأحد أخطاء الإنسان التاريخية العظمىٰ هو بناؤه حركته في مسار ارتباطاته الإنسانية على اساس قانون «الفعل ورد الفعل» المادي، أي بناءاً على قاعدة «لكل فعل رد فعل» من نفس النوع. فبحسب هذه الرؤية يكون الرد الوحيد الممكن والموجود إزاء العنف هو رد فعل مأخوذ من نفس ذلك العمل وبالطبع عنيف. هكذا كشف العنف على مر التاريخ عن ماهيته للانسان باعتباره حقيقة منبثقة من نظام الوجود. والانسان بدوره يطلق نفسه، رغم ما يراه من تعارض قائم بين هذا الحكم التاريخي وايحاءات ونداءات باطنه، في مسيرة الحركة التاريخية الماضية دون تأمل. هكذا كما يقول المؤرخ الانكليزي المعاصر «ارنولد توينبي»: «لم يترك بنو الانسان الحرب منذ ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة مضت وحتى الآن إلّا دفعة واحدة لكل خمسة عشر عاماً وواصل الحرب على مر بقية السنوات أي أن السلام لم يستتب في العالم على مر (٣٥٠٠) عاماً إلّا خلال (٢٣٣) سنة وبنحو متناثر».

ما هو مسلم به هو ان العنف ساد الجزء الأكبر من تاريخ الانسان، ولكن ليس بأسره حيث شهد تاريخه أوقاتاً ممتازة ومنتقاة، واجه فيها الانسان، بوعي ورغم اقتداره، العنف قائلاً (لا). وبموقفه هذا اختار الطريق الإنساني لنيل أهدافه وطموحاته. وكما يقول غاندي: «اللا عنف هو قانون صنفنا، كما

هو العنف قانون الحيوانات».

وغاندي، وهو من أبرز رواد اتجاه اللا عنف في العالم، يرى أن تنامي الإنسان ونيله الحرية أمر ضروري خلافاً لكثيرين يرون أن العنف أمر فطري منبثق من كيان الانسان. انه يرى ان اللا عنف من الضرورات الأساسية في الحياة والعمل على نبذ العنف في الحياة أمر لا مفر منه. ويقول:

«اللا عنف ضرورة أساسية في الحياة بالنسبة للجسم...

اللا عنف يعني العمل على نبذ العنف، وهو ما لا مفر منه في الحياة...»

إنه حتى يذهب أكثر من هذا، فيثبت قوام معرفته في مجال علم الإنسان على اساس تحاشي العنف: «الانسان عنيف باعتباره حيوان ولكنه متجرد عن العنف باعتباره روح. فما أن تتنبه الروح من الباطن يتعذر عليه بعد ذلك أن يعنف فأما يتجه نحو اللا عنف أو يعجّل في إفناء ذاته. من البديهي أن الطريق الوحيد للتحرر من العنف هو الحوار. ولكن تحقق الحوار يتوقف على توفر أجواء الحوار».

فما دام الحوار العالمي الأعم هو حوار العنف لن يتحقق الحوار الحقيقي. وسوف تبقىٰ الانسانية معرضة دوماً للخطر والاستكانة جراء الاغتيالات والحروب. «فالحوار الحقيقي يتحقق أساساً مع الحب وفي ظل الحب». وهذا الحب هو الذي سوف ينقذ الانسانية في النهاية.

وكما يقول الدكتور «فيكتور فرانكلين»: «الحب هو الهدف الأسمىٰ والأبعد الذي يطمح إليه الإنسان». كما يقول: «أعظم سر ينبغي على شعور الإنسان وفكره ورؤاه أن تكشف عنه هو أن تحرر الانسان يتم عن طريق الحب وفي ظل الحب».

إنه يرى في الحب أكثر من مجموعة من الحالات والمشاعر النفسية. بل كما يقول «لوتركينغ»: «لا تعبر لفظة الحب، كما نستخدمها، عن الادراك وطلب الخير المستوحى من اللفظة اليونانية (آكابه). و (آكابه) تعني الادراك

المحرِّر، طلب الخير المحُرِّر وحب مفعم لا يتطلب بالمقابل شيئاً. إنه حب إلهي له أثره في قلب الإنسان». من هنا، فان حب (آكابه) «ليس حباً استعبادياً مُكبِّلاً». انه قوة تمكن الأشخاص من إضمار الحب لبعضم، كما يحبهم الله. مثل هذا الحب يوصد الأبواب إزاء العنف ويوفر خلفية التحاور. فالإنسان المحب بهذا المعنى لا يكون فظاً إزاء المنافس ولكن ذهنه ناشط وهو في الحوار مثابر. فأسلوبه تجاوبي انفعالي جسمياً ولكنه فاعل للغاية معنوياً. فالحب بحسب هذا المفهوم لا يمثل نمطاً روحياً فقط بل أسلوب عمل وأكثر من ذلك نهجاً للحياة والطريق الوحيد لتحقيق العدالة والحرية. ورسالة هذا الحب هو عزيمة الاصلاح والعمل لا التغاضي والسكون. فهذا الحب، إذاً، يحمل نداء السلام والأماني. كما تقول الأم «ترزا»: «الخدمة ثمرة الحب، والهدوء ثمرة الخدمة»[١].

على هذا، فان (حوار الحب لا يقوم على أساس حوار الانتقام والاجراءات الانعكاسية، بل على الفعل المستقل والمحطم للأطر المتقولبة، حوار ارتقى من مستوى الأسلوب التجاوبي إلى الأسلوب التفاعلي. ويبدع الارتباطات بين العلة والمعلول وبين المعطيات والمكتسبات، وبين الباطنيات والخارجيات وبين الفعل ورد الفعل بأسلوب جديد).

وتتضمن التعاليم الاسلامية أحاديث كثيرة تحث اتباع هذا الدين للتغلب على المساوئ بفعل «الخير»، فالشر لا يأتي إلّا بالشر والخير يستزيد البر فالرد على «السوء» بفعل «الخير» يؤدي إلى تراجع مظاهر «الشر» من المجتمع الإنساني شيئاً فشيئاً. من هنا تذكر الأحاديث المروية عن أهل بيت رسول الله ﷺ ان المنتصر هو من يرد الشر بالخير. وهذا النمط الاستدراكي إزاء العنف هو أسلوب غير انعكاسي ورد فعل غير متجانس إزاء الشر.

---

١ ـ انظر كتاب: «گفتآن عشق» (حوار الحب): حجة الله سلطاني فر.

وقد نزلت الأديان الالهيـة لتهدي السلام والهدوء إلـى الانسان. فـماهية الدين هـي نفس الهدوء وتجنب التوترات العابثة والسلوكيات العدائية. ولكن يبدو أن الملتزمين زيفاً بالدين والمتظاهرين بالدين مـن أصـحاب السـلوك العنيف قد قلبوا الحقائق، فصار الدين أداتهم لتسوية حسابات شخصية. وفي هذا يقول غاندي:

«الكثير من الناس يتمتعون بمستوى من الدين بحيث يضمرون النفور إزاء بعض. لأن ساحة دينهم لا تتسع مجالاً ليضمروا الحب إزاء بعض».

«لا، للشهرة والمعروفية»

يقول كيشلوفسكي:
«الشهرة، تقتل المواهب»

***

يقصد المنتج السينمائي الكبير المعاصر «كيشلوفسكي» من قوله «الشهرة تقتل المواهب» هو إثارة انتباه الإنسان إلى القلاع المنيعة التي تفرضها التوقعات من الشخص بعد اكتسابه شهرة كبيرة. فحرية التصرف وسيّالية «الشخصية» والطابع الطبيعي في التفكير تتراجع ليحل محلها، في ظل الشهرة، التصنع ومتطلبات الدعاية والاستجابة للمطاليب والتوقعات الخفية والجلية للمجتمع. فباتساع دائرة الشهرة تتقلص المواهب ويتلون الابداع والاختراع بصبغة الاقتباس والاحتياط.

فمن ينال الشهرة يحرم من الحالة الطبيعية الاسترسالية ويحاول الحفاظ على سمعته الاجتماعية ووجاهته المألوفة على حساب الحرمان من حريته وفرديته وفكره التباعدي.

ويقول «اوشو» أيضاً في هذا الخصوص: بُنية حياتنا الكلية، علمتنا أننا ما دمنا لم نكتسب معروفية رسمية بعد، ولسنا أحداً يذكر، ولا قيمة لنا، فان

العلم ذاته غير ذي أهمية. المهم هو الوجاهة والسمعة. وهذا هو تزييف الأمور. الأهمية يجب أن تولى للعمل. المتعة يجب أن تكمن في العمل ذاته. (لا يتوجب عليك أن تسعى لتكتسب مكانة بين أصحاب الوجاهة. بل يجب أن تتمتع بقابلية إبداعك. فأي مبدع ينبغي أن يكون قادراً على أن يبدو أبلهاً. إنه ملزم بأن يجازف بما يسمى السمعة والوجاهة هذه. ولهذا السبب أيضاً تجد الشعراء والرسامين والموسيقيين والعرفاء ليسوا (برأي عامة الناس) أصحاب سمعة ووجاهة تذكر.

الثروة والقدرة والشهرة أمور لا إبداع فيها، وليست متجردة عن الابداع فقط بل تعتبر من النشاطات الهدامة[١].

فالشهرة تجعل الإنسان ينمو كمخاطبيه ويسلك بحسب توقعاتهم التي أوصلته إلى مثل هذه الشهرة والمحبوبية.

الشهرة تحدد تنامي الشخص بما يروق لمخاطبيه وينساب في سياق التوقعات التي جاءت له بمثل هذه الشهرة والوجاهة.

الشهرة تقتلع جذور جميع الطاقات الذاتية والابداعات الاسترسالية والانعكاسات الحرة والاعتباطية للإنسان والتي تعتبر وليدة المجهولية والكينونة والصيرورة والزعامة الذاتية حيث يضحي الشخص بجميع هذه النعم الباطنية لأجل الدوافع والتوقعات وحالات التنافس. من هنا فان اكتساب الشهرة يعتبر الفقدان التدريجي للكينونة.

---

١ ـ «الابداع»، اوشو.

«لا، للقمع»

ربما يمكن القول انه لتثبيت وللحفاظ على ديمومة شيء ما، لا ينبغي الترويج له بل قمعه! ولكن القمع لا يشطب السلوك المنبوذ والطاقة الناشئة عنه بل يزيده قوة وعمقاً. والخطأ يكمن في نفس هذه الملاحظة، وهي أن يسود التصور بأن القمع يعني الشطب والإبادة! ولايضاح هذا الموضوع يروي «اوشو» مثالاً من تاريخ التصوف القديم تتبين منه الافرازات العكسية للقمع:

«زار الملا نصر الدين يوماً صديقه القديم جلال. فقال الملا: كم سررت للقائك بعد كل هذه الفترة! كنت للحظة أخرج للقاء عدة اشخاص تعال نسير معاً. وبالطبع يمكننا أن نتبادل الحديث أيضاً أثناء السير.

قال جلال: إذاً، أقرضني رداءاً مناسباً.ترى ردائي غير مناسب للضيافة. قدم له الملا رداءاً جميلاً وجيداً.

في المنزل الأول قدّم الملا صديقه قائلاً: «إنه صديقي القديم جلال ولكن الرداء الذي يرتديه ملك لي!»

وفي الطريق إلى القرية التالية قال جلال للملا: ما أبله الكلام الذي نطقت به: (الرداء الذي يرتديه ملك لي!)، لا تعيده ثانية. فواعده الملا بذلك.

ولما جلسا في المنزل الثاني، قال نصر الدين: هذا صديقي القديم جلال ولكن الرداء الذي يرتديه ملك له! وعند العودة، كان جلال متذمراً أيضاً فقال:

لماذا تحدثت هكذا؟ هل أنت مجنون؟ قال الملا: أردت أن أوضّح فقط! لا عتاب بيننا بعد هذا.

قال جلال باسلوب رقيق وبتواؤد: إذا كان لا يضيق عليك طلبي، لا تتحدث بعد هذا بأي شيء عن الرداء. وافق نصر الدين على ذلك.

ما أن دخلوا المنزل الثالث، قال نصر الدين: اقدم صديقي جلال والرداء الذي يرتديه... ولكن يجب أن لا نتحدث بشيء عن الرداء. أليس كذلك يا جلال؟!

فأنت عندما تجهد لقمع فكرة ما، فإنها تراودك مراراً وكراراً[١].

إذاً، القمع، كما لوحظ، لا يؤدي إلى شطب الفكرة بل إلى الكشف عنها بنحو أكثر حدّة ووضوحاً.

---

١ ـ عن كتاب «السر» لاوشو.

«لا، للتقدم»

يقول امرسون:

«ما يقع ورائنا وما يتقدمنا هو جزئي قياساً إلى ما يستقر في باطننا».

***

يطرح «هربرت شلايشرت، في مقال يحمل عنوان «التقدم والاتجاه المتشائم إزاءه» عدة تساؤلات أساسية حول موضوع التقدم، بإمكانها أن ترغمنا من خلال تبني رؤية جديدة، على أن نرتاب بكل ما يتسم بمنتهى البداهة والتأييد والمقبولية. يقول «شلايشرت» في نفس هذا المقال:

كان هذا السؤال يطرح دوماً، وهو: كيف ينبغي تقييم حالات «التقدم»؟ وهل أن التقدم سوف يُحسِّن حياتنا؟

عند التقييم يجب الاستناد إلى مقياس ما. وهذه ليست قضية فلسفية بسيطة. سوف أكتفي بأمثلة موضوعية. إنني لا أعلم بالضبط ما هي الحياة الحسنة، ولكنني اعلم ان الحياة دون أوجاع الأسنان أفضل من الحياة معها، أو أن الحياة في «غرف مضاءة يتم تدفئتها بأجهزة مركزية» أفضل من الحياة في غارات باردة، مرطوبة وظلماء، والحياة بعيداً عن رهبة الطاعون والجدب أفضل من الحياة مع هذه الهواجس.

فهل يا ترىٰ كان للتقدم دور في تحسين حياتنا قياساً إلى العصر الحجري؟ في الماضي كان يتم الرد على هذا السؤال بإجابات صاخبة. وتوحي المدن الخيالية في كتابات كامبانيلا (Tommaso Campanella) وفرانسيس بيكون (Francis Bacon) ومور (Morus/ More Thomas) في بداية العصر الحديث بالاستناد إلى التطور التقني الحاصل، توحي بتوقع تطورات ايجابية لا تُصدق في مسيرة الحياة الانسانية. ويلعب البرهان الأخلاقي والاجتماعي دوراً هاماً فيها.

أغلبية الجرائم تحدث إنطلاقاً من الحاجة. فلو توفر للجميع مستلزمات حياتهم بقدر كاف، فمن يلجأ الى السرقة؟ والتقدم وحده يضمن انتاج هذه السلعة. وفي هذه الحالة يصبح التقدم سنداً للأخلاق. وزمنياً كذلك يمكن تقليص فترة العمل اليومي ليتمكن الإنسان بالتالي من حيازة الفرصة للتثقف والترويح. وبإيجاز سوف يتحسن وضع الجميع. وتصبح الحياة أجمل وأغزر مضموناً. كانت هذه طموحات القرن السادس عشر.

يمكن استذكار الماضي أيضاً في سياق إعداد النار للطهي، أعمال الغسل والتنظيف، زراعة النباتات المفيدة وتربية الحيوانات الأهلية. فكلها أعمال شهدت التقدم مما جعل الحياة أفضل وأكبر حظاً من الأمان. حتى أكثر المنتقدين تزمتاً يذعنون لهذه الملاحظة.

ولكن باقترابنا من الوقت الحالي نخرج من تقييم التقدم بانطباع أقل اندفاعاً وحماساً وأكثر سلبية وتشاؤماً. فالوضع على هذه الحال منذ ما لا يقل عن (٢٠٠) سنة. نقول، عموماً، إنه هنالك ثلاثة أنماط من الانتقادات:

١ ـ وضع العالم يؤول بإطراد إلى ما يجعل الحياة أقل استحساناً وأكثر غرابة.

٢ ـ التقدم يغدو، باطراد، أكثر خطراً.

٣ ـ الانتقاد عن طريق البراهين الاجتماعية[١]...

يحاول «شلايشرت» بما يذكره من براهين مختلفة وعرض نظريات اجتماعية وفلسفية، في هذا المقال، أن يغيّر نظرة الإنسان المعاصر إلى ما يسميه تقدماً ورقياً وحداثة. فمردودات أغلبية التطورات العلمية والفنية البشرية تؤدي إلى توتر وتعارض وإنهاك روحه ونفسه أكثر مما يترشح عنها من هدوء واتزان الإنسان وتناميه معنوياً.

ومن خلال نظرة كلية لموضوع التقدم يستخلص «هربرت شلايشرت» أن الانسان وباستغلاله المتيقظ لقوى الطبيعة ينقذ نفسه من صدامات الطبيعة. فلو نتطلع إلى الأرض من الخارج، من كوكب آخر وبنظرات مترصدة غير أرضية، سوف نقرأ من كل ذلك حكاية ساحرة.

وبامكاننا الآن أن نطرح هذا السؤال على قدم وساق وهو: وهل لكل هذا ضرورة ما؟ فحتى في عصر الانسان «نيادرتال» تيسر ذلك باستخدام الأدوات الحجرية. فما حاجة بني الانسان للتقدم المطرد؟ والجواب هو دائماً:

«إنهم ليسوا بحاجة الى التقدم.

ومع ذلك، فان التقدم سوف يتحقق لهم».

في الحقيقة، يفرز التقدم تحولاً تدريجياً ولكن حاسماً في تقدير جميع المبادئ والقيم. ونظرياً يمكن القول، بالطبع، أنه لا العلم ولا التقنية يلعبان أي دور حاسم. بل ما يهم هو ما نصنعه بالاستناد إليهما. وهذا ما يتوقف على نظامنا القيمي. فنحن مخلوقات أصحاب عقول، ولكن فعل العالم ليس عقلانياً!

ويقول في مجال آخر من نفس هذا المقال:

---

١ ـ مقتطفات من المقال المذكور بحسب ترجمتها الفارسية المنشورة في نشرة «كلستانه»، العدد (١٢).

«رغم أن الأشخاص يزدادون نباهة على الصعيد الفني والعقلي، ولكن بنفس الدرجة تزداد إمكانية اتخاذهم ألعوبة. لأنهم لا يزدادون تعقلاً. فبالضبط نفس هؤلاء الأشخاص الغير عاطفيين في عصر التقنية يتهافتون وراء الفرق المريبة والتقليدية المتعصبة والمخادعين للناس، على اختلاف أنماطهم. ولم تشهد الإنسانية نمواً أخلاقياً بمثل سرعة تطورها في الحقل التقني مما جعل الأخلاق تتخلف وصار يترتب عليها أن تواصل نموها. ولكن لا أحد يعرف كيف يمكن أداء مثل هذه المهمة».

ومع هيمنة التقنية تقلصت الارتباطات الاجتماعية فكلٌ له أجهزة تؤدي مختلف أعماله، ويظهر أنه في غنى عن الآخرين. لا يكتب رسائل بل يقبع وحيداً أمام جهاز الحاسوب. والانتاج الواسع يسوق (الانسان) للفناء في المجموعة، وقمع الفردية وانعدام الإبداع. وتفقد الأعمال اليدوية مفهومها، ولا يعود لعزف الموسيقى أي مفهوم فالأقراص الضاغطة تؤدي هذه المهمة على مستوىً أفضل بكثير. فالانسان لا يعود بعد ذلك بحاجة إلى التخيل والأحلام. يمكننا الرد على كل هذا بتهكم أن: هذا هو بالضبط ما يحتاجه أغلبية الناس. فالتقنية كيّفت نفسها مع احتياجات أناس ينوون مشاهدة أفلام الحوادث أو مباراة لكرة القدم فقط وليس مع احتياجات هواة الموسيقى التي تعزف عند اجتماع الأسرة. فأنماط الحياة تتغير ولم يكن لأنماطها القديمة أيضاً جمال خاص.

أنه برهان رصين في قرع التقدم يوحي بعدم ضرورة التقدم. فأكثر الإبداعات ليست ذات ضرورة بالفعل ويمكن مواصلة عيش رغيد في حالة الاستغناء عنها أيضاً. فمن يحتاج لطائرة «الكنكورد» ذات السرعة الخارقة؟ فالتقدم يلقننا احتياجات جديدة يلبيها بمجرد توفر إمكانية تلبيتها. فهل هنالك ضرورة تحتم امتلاك الجميع للهاتف النقال؟ وما الحاجة إلى المحطات الفضائية وطاقمها المرابط فيها؟ فهل صارت حياتنا بتوفرها أكثر سعادة

وأفضل سياقاً؟ وهل من الضروري أن تكون لنا قطارات هوائية مغناطيسية؟

لقد تطبعت الانتقادات الأخلاقية بنمط من الفكر الجبري (حتمية القضاء والقدر). على أية حال ليس هنالك ما يعيننا في هذا السياق. التقدم سوف يتواصل. ليس بمقدورنا، مهما نوينا أن نفعل وأي شعور نعتلج، أن نفر من التقدم. سوف يلتقط التقدم ضحاياه وهذا قضاء مذهبي تماماً[١].

هنا نعود ثانية لعبارة رمزية لتاركوفسكي، حيث يقول: «الانسان يختبر البلوغ دوماً أقل مما مضى». فحواس الانسان القديم وأداؤها فيما يخص ادراك العالم كانت أقوى بكثير من حواس الانسان الجديد. فكما يقال، كان للانسان القديم (٢١) حاسة مختلفة صارت تقتصر حالياً على (٦ ـ ٧) حواس تحددت وتخرشت قابلياتها. فتقدم الوسائل المُعينة الخارجية يمنع تطور الحواس الباطنية المتنامية وتعزيزها. في الحقيقة يمكن القول أن تقدم علم ومعرفة الانسان كلما زاد الإنسان كمالاً من الخارج، ربما أتى عليه بنفس القدر من الخواء والضعف في الباطن.

للانسان الحديث طابع فرداني أناني، وحدودي يسعى لاكتساب القدرة والثروة والمكانة الاجتماعية أكثر فأكثر. إنه يعجز عن التفكير حول المفهوم المعنوي للحياة. تُقسم حياته بين طموحات وأهداف فرضت عليه من قبل البيئة، وتحقيقها يتطلب السرعة والفاعلية. وهي عموماً تمنع التنامي والتعالي المعنوي في الحياة[٢].

من هنا يصف «نيتشه» وضع الانسان العصري قائلاً:

«الصنف البشري ليس وكيلاً منتدباً عن التقدم نحو شيء أفضل أو أقوى

---

١ ـ انظر نفس المقال.

٢ ـ انظر كتاب «خشونت مدرنيته» (العنف العصري)، د. امين جهانبكلو، صحيفة «همشهري»، العددين (٣٠٩١ ـ ٣٠٩٢).

أو أسمىٰ بحسب ما ندركه عنه في وقتنا الحالي.

... واوربا الحالية ربما تكون قيمياً أدنى مستوىٰ من أوربا عصر النهضة[١].

ومفهوم ومكانة «التقدم» من وجهة نظر الأديان أيضاً جدير بالتأمل، حيث ترى مجموعة من أصحاب الرأي في مجال البحث الديني أن:

«فكرة» التقدم غير موجودة في الأديان. إنها تتضمن فكرة «الأمل» بدلاً عنها. فليس هنالك من مذهب عقائدي سواء الأديان الابراهيمية: اي اليهودية والمسيحية والاسلام أو المذاهب الشرقية مثل المذهب الهندوسي، والمذهب البوذي، ومذهب ايو ومذهب شنتو، يدعو إلى «التقدم»...

لم تتبن الأديان فكرة التقدم ولم تشر أساساً إلى أنّ النوع البشري يواصل التقدم في الجانب المادي أو المعنوي من حياته. ناهيك عمن يرى أن الأديان تتبنىٰ فكرة التراجع وهذا ما لا أؤكد عليه أنا بالذات. فالأديان استعاضت عن مفهوم التقدم بمفهوم «الأمل»، قالت أنكم لا تواصلون التقدم والتطور أي أن يكون الأب دوماً أكثر تخلفاً من الإبن والإبن أكثر تخلفاً من الحفيد وأي حفيد أكثر تخلفاً من الوليد. الأمر ليس هكذا أساساً. بل لكل إنسان فرد شيء يسمى الأمل والرجاء. والفرق شاسع بين الأمل والتقدم. هنالك فوارق ثلاثة، على الأقل، بين الأمل والتقدم، وهي:

ـ التقدم يتعلق بماضي الإنسان وحاضره ومستقبله، أما الأمل (الرجاء) فإنه لا يتعلق بالضرورة بأمور متحققة. فقد آمل في شيء يتحقق بالفعل أو أعقد الأمل على شيء لا يتحقق. فمحل الانطلاق في الأمل هو «المطلوبية» لا «الموجودية» بينما نقطة ارتكاز التقدم هي «الموجودية».

ـ التقدم فكرة اجتماعية. فعندما ندّعي أن المجتمع الحالي أكثر تقدماً من مجتمع ما قبل مائة عام لا نعني ان أي انسان في هذا المجتمع هو أكثر تقدماً

---

١ ـ «في معاداة الدجال»، الفصل ٣ و٤.

من انسان ما قبل مائة عام.

فالتقدم ادعاء موجه للمجتمع بكله لا لأعضاء المجتمع كل على انفراد، بينما الأمل أمر فردي.

ـ الأمل يؤدي إلى العمل، أما فكرة التقدم فإنها لا تدعو، بالضرورة، إلى العمل. لماذا؟ لأن فكرة التقدم تنص على أن هذا القانون نافذ في عالم الوجود سواء تقاعست أنت أم لم تتقاعس. فهذا القانون سائد بالفعل. فلو كنتم على ظهر سفينة ما، فحركتها وسكونها لا يرتبط بكم أنتم المقيمين على ظهرها. أما إذا كنت أنا أواصل السباحة في البحر بدلاً عن أن أكون على ظهر السفينة، فمِمَ أقترب ومِمَ أبتعد أمر يتعلق بنشاطي أنا. فكرة التقدم تقول أن هنالك سفينة مخرت عنانها في البحر تسمى «التقدم» وأنه هنالك مسيرة عامة تتجه نحو الأمام. من هنا لا توجه أية دعوة. أما الأمل فإنه بامكانه أن يتفاعل في سياق الفعل. الأمل، في الحقيقة، أمر فردي مع فقدانه ضمان التحقق. الأمل مرفق دوماً بالاطمئنان ونفس انعدام الاطمئنان هذا يمثل عامل محفز للعمل. فالأديان تتبنى فكرة «الأمل». ومتبني فكرة الأمل لابد أن يستند إلى افتراض مسبق وهو انكم لو تصورتم أن القوانين المسيّرة لعالم الوجود تتحدد بالقوانين المعروفة فإن الأمل سوف ينعدم بعد ذلك[1].

---

١ ـ نقلاً عن «راه به رهايى» (الطريق إلى الانعتاق»، مصطفى ملكيان، صحيفة ايران، العدد (٣١٧٩).

«لا، للفهم»

«الناس ليسوا بحاجة إلى الفهم، إنهم بحاجة للنسيان فقط»[1]

***

جاء في «اتباع اوبانيشاد»

«من لم يفهم، فإنه فهم؛

ومن فهم، لم يُفصِح،

ومن أفصح، لم يفهم.

ففهمه عدم فهم، وعدم فهمه هو الفهم!

فكما يقول جبران خليل جبران: «الكثير من المذاهب (المعارف) كزجاج النافذة، نرى الحقيقة من خلالها، ولكنها تفصلنا عن الحقيقة»[2].

فالحقيقة، في واقع الحال، ليست شيئاً مصنعاً من ذي قبل. بل كل حقيقة هي كشف غير تام يفقد حقيقته فيما لو اكتمل.

ولهذا قيل:

ـ قدرة الفهم تكمن في ضعفه.

---

١ ـ عن كتاب «التاوتي تشنج» أو «مصنف لاوتزو».

٢ ـ عن كتاب «رمل وزبد».

ـ العلم الواقعي هو التيقظ لعدم المعرفة.

ـ أغنى ذهن لفهم الحقيقة هو أوسع الأذهان خلأ.

ـ العلم الواقعي لا يملأ الأذهان بل يُفرغها.

ربما لم يخطأ «نيتشه» في عبارته: (زيادة اللا تعقل، هو جزء من «التقدم»). حيث يقول الحكيم سقراط: عجز الناس عن اكتشاف الحقيقة سببه عدم تقصيهم لها. وعدم تقصيهم لها سببه أنهم غير ذوي حاجة إليها وعدم حاجتهم إليها سببه تصورهم أنهم يحرزون عليها. إذاً، بادئاً يجب التيقظ إزاء جهلهم وعدم فهمهم. وفهم عدم الفهم والاستيعاب الكابح للجهل يتطلب إفراغ أذهانهم من كل ما فهموا ومن كل ما عرفوا!

إذاً، المطلوب هو التجرد عن الفهم، عندئذ يزدهر فهم الحقيقة دون بذل عناء أو تحمل بلاء!

«لا، لبعد النظر»

يقول «ويدا» (Weda):

«مساحة (المستقبل) تتحدد في عمق (الحال)».

***

يقول الحكيم الويدائي: لا أشعر بالقلق إزاء الماضي ولا أهاب المستقبل، فحياتي تتركز في الوقت الحالي فقط ويتبادر إليّ الانعكاس الصحيح مع تبلور أي موقف»[1].

فالمستقبل هو نفس «الحال». ومن يتأمل الحال بدقة بإمكانه إبداع المستقبل بدقة فهو ليس بحاجة لبعد النظر.

فالمستقبل ليس جهازاً أو هدفاً بعيد المنال. المستقبل عملية فكرية نكتشفها ونستحوذ عليها.

فمن يستسلم للحال بإمكانه تغيير المستقبل والماضي، كما قال «دون خو آن» ذات مرة لـ «كارلوس كاستاندا»: «عندما نستسلم للمصير المُقدّر لنا، لا يهم ما يكون ذلك المصير. إنها خُفة، إنه ابتهاج، إنها الحرية، إنها لهفة الحياة[2].

---

١ ـ انظر «خلق الوفرة» للدكتور ديباك جوبرا.

٢ ـ المصدر السابق.

إنه المستقبل ذاته.

فالحيوية اللا محدودة، الابداع اللا متناهي، العلم النـقي، الهـدوء الأزلي، الاتزان المتكامل، التناسق المتوازن، الخلود المتكاثر، الحرية، الوعي المُنمي، البساطة المنتجة، النظام المترسخ، القوة المنظِّمة و... لا تتحقق إلّا بانعتاقنا من هواجسنا إزاء المستقبل. وأن نحقق ذاتنا في «حالنا» ونهتدي إلى الحال في «ذات الحال». والالتزام بمرجـعية الذات عـملية اسـتعراض جـميع الأزمـنة والأمكنة بعيداً عن التشوشات والهواجس. فان «هنالك» هو «هنا» ذاتـه. و «الآن» يُخصَّب وبإخصاب «الآن» يتحول «المستقبل» في النهاية من الكمون إلى طور الفعل.

يقول الشاعر «مولوي» في أبيات له ما معناه: «دع المياه تركد لترى صورة القمر والنجوم في وجودك».

فأنت، إذاً، دع الزمان والمكان يتوقفان،

دع الجهد والتقصي المطرد يتوقف،

دع الفكر يكتظ باللا فكر كي ينعكس فيه المستقبل وكأنه مرآة.

قال فهيم هندي كبير حول دور الانتباه في مختلف انواع إدراكنا حـول العالم:

«انتم تقفون حيث يأخذكم انتباهكم إلى هناك. اي انكم في الواقع تمثلون انتباهكم. فلو كان انتباهكم مشتتاً فأنتم مشتتون. ولو تـركز انـتباهكم فـي الماضي فأنتم ما زلتم في الماضي. أمّا لو كان انتباهكم يتركز في «الحـال» فانكم تقفون عند الله والله عندكم».

إذاً، يتوجب أن نحدد تفكيرنا في الزمان الحالي وفيما نـفعل الآن. فـالله حاضر وشاهد في كل مكان. ويكفي أن نستوعبه بوعي وبانتباهنا.

في الحقيقة، «الماضي» لم ينته و «المستقبل» آت، و «الحاضر» قد مضى. فهذا الانطباع عن مرور الزمن هو انطباع عكسي لكل الموضوعات الكمية

والنوعية ذات الصلة بالحاضر والمستقبل والماضي.

فمفاهيم مثل: بناء المستقبل، استطلاع المستقبل وبعد النظر ورؤية المستقبل هي، بحد ذاتها، عوائق كبيرة لا يمكن إزالتها، تعترض طريق الكشف الطبيعي الاسترسالي عن المستقبل وإبداع ما يتعين حدوثه خلال عملية ذاتية باطنية.

«لا، للإلزام الديني الاصطناعي!»

يقال أن أحد الحكماء كشف عن سر بين الحكماء الإكسيريين وعلى مرأى محبيه من متقصي سحر الإكسير. فقال: بحكمتي أقوى على أن أحوّل كل شيء إلى ذهب نقي! رد عليه تلامذته بانبهار ودهشة: وهل لك أن تعلمنا نحن أيضاً هذا الإكسير؟

قال الحكيم: إنه أمر في غاية البساطة. وعلى قدر من البساطة لا يقوى أحد، لفرط سهولته، على أدائه. أصاب هذا الكلام الغامض للحكيم، مريديه بدهشة دفعتهم للتمازح.

ولاثبات ما يدّعيه، قال الحكيم: سوف أحول في اللحظة هذه القطعة النحاسية إلى سبيكة من الذهب النقي.

كان الجميع بانتظار معجزته الإكسيرية العجيبة هذه عندما شاهدوا الحكيم يُخرج قبضة من الرماد من جيبه وبعد تريث متعمق وبينما هو يغمض عينيه، إشارة إلى تركيزه، صب ذلك الرماد على قطعة النحاس فتحولت فجأة إلى ذهب.

التفت الحكيم إلى تلامذته وقال: انتم أيضاً، كرروا نفس هذا العمل سوف تلاحظون أنكم قادرون على مثل هذا الاعجاز الكيميائي.

تقدم أحد التلامذة، وبلهفة لا توصف واندفاع طفولي، وحمل قدراً من

الرماد ليصبه على النحاس. ولكن الحكيم قال له: هيهات أن توفق في هـذا الاعجاز الإكسيري دون التعرف على سر سأخبرك عنه.

قال التلميذ: وماذاك السر؟

قال الحكيم: السر هو انك ملزم عند صب الرماد أن تتحذر من أن يكون ذهنك منشغلاً بالذهب.

قال التلميذ: وما هو السر الهين وما أبسط هذه الحكمة! لا بأس. سـوف أفعل هكذا.

(ليس هو وحده بل جميع التلاميذ اتخذوا هذه البادرة كل على انـفراد). حتى اتضح للجميع أن هذا السر الخفي ليعجز على تطبيقه أي شخص. لأنهم كلما همّوا بصب الرماد على قطعة النحاس تراودهم فجأة ودون وعي منهم فكرة الذهب. فكلما عقدوا العزم على عدم تذكر الذهب كان عـزمهم نـفسه والتذكير بعدم التذكر هو بحد ذاته تذكر لنصيحة الحكيم. وبنيّة تجنب تذكر ذلك السر يلقون أنفسهم عفوياً في مغبة ما يحذرونه. فعلِم التلامذة أي سـر معقد ومتعال يكمن في هذا (المنع البسيط).

***

وأما بعد.. فإنه ربما يمكن القول أنه يجب في حكمة «التربية» أيضاً تعلم هذا السر البسيط. فالمربي لا يوفق في أداء مهمة تربية المتربي إلّا عندما لا يفكر على الإطلاق في تربيته. فالتربية، في الحقيقة، عملية وجودية، باطنية وغير واعية. فأية ارادة ونـيّة للـتلاعب بـروح المـتربي ونـفسه يـؤدي إلى استئصال مقومات التربية الباطنية!

أي، كلما نويتم تربية شخص ما، فإنكم في نفس تـلك اللـحظة تـفقدون إكسير التربية! أما إذا وفرتم الأرضية ليتربى المتربي تلقائياً عندئذ تـحققون هدف «التربية الذاتية المـنشأ». وهكـذا لو يـتم إلزامـه بـالدين عـلى نـحو اصطناعي وتحاملي أو إيحائي، تكونون قد حـرمتموه مـن الدافـع الديـني

واندفاعه الباطني نحو الدين لأنه يجب توفير أجواء تحثه أن يحقق الايمان شخصياً ومن قرارة القلب وعن رغبة باطنية غريزية وإرادة حرة.

الدافع الديني عملية اكتشافية لا اكتسابية، ففي الاكتساب ينتقل المنتوج من الخارج إلى الباطن، أما في الاكتشاف والشهود أو التلقي المفاجئ فانه يتعين استخراج مكنون باطني ما.

ولهذا السبب نفسه يُحدّد معنى أحد مواد لفظة (Educational) بأنه (Educere) أي الاستخراج لا النقل[١].

وهذا ما يذكرنا بحكاية جاء فيها:

(زار شاب نحيف مكتئب محللاً نفسياً، فشكا كابوساً يراوده باستمرار. وقال: أحلم ليلياً بلوحة منصوبة على باب أضغط عليه وأضغط، ولكن.. لا أقوى على فتحه! تساءل الطبيب باندهاش: وماذا كتب على اللوحة؟ قال الشاب: كتب عليها: «إسحب. قال الطبيب: انت تضغط عليه طوال حياتك وقد كُتب على اللوحة «إسحب»؟!).

فالتربية الدينية هي سحب واستخراج مكنون فطري لا النقل أو الإضافة من الخارج.

فلو حلّت هاتان الحالتان مكان البعض سوف يتلاشى الهدف. فحتى لو عقدت النية على تحقيقه فإنه يتلاشى في اللحظة.

فالطريق إلى تحقيق الايمان هو عدم تقصيه! إنه أمر يبدو بمنتهى الغرابة واللا منطقية. ولكن الحقيقة هي هذه بالضبط. فالوجود أمر غير منطقي. ولهذا نطلق عليه لفظة «السر». و «السر» لو كان له منطق، وحسابات وأعداد وأرقام

---

١ ـ انظر «التعليم في مقام التربية» للمؤلف، الكراس (٢٩)، معهد «تعليم وتربيت» للأبحاث، ٢٠٠٣.

ومنهج ونظام ومعادلات مقررة مسبقاً لما كنا نسميه «السر»[١].

فالتربية الدينية أيضاً موضوع من نفس هذا السياق. أي ان (اخضاع الأشخاص للتربية الدينية فإنها سوف تصبح بحد ذاتها عائقاً إزاء «تربي» الأشخاص ما دامت تُنجز على اساس تخطيط واجراء خارجي).

التربية الدينية، في الحقيقة، هي عملية باطنية، قلبية، ذاتية الانطلاق وذاتية الاندفاع، قوامها الشهود (الحدس) والكشف الوجودي. من هنا لو تنجز عن طريق الآليات الخارجية دون التفاعل الوجودي فانها تفقد أصالتها الطبيعية والفطرية.

التربية الدينية يترشح عنها الايمان القلبي. والايمان القلبي ليس أمراً يحدث إثر برمجة اصطناعية أو تعليم رسمي وتلاعب ارادي من قبل الغير.

ربما لهذا السبب نفسه يقول أحد العظام المتفهمين، المستوعبين لحقيقة الآلام والمتنبهين لبواطن الأمور هي عبارة متعارضة الأجزاء في ظاهرها: «استتار ظاهر الدين بهدف اكتشاف الدين باطنياً يقرب الانسان من حقيقة الدافع الديني وهو دافع يحقق الازدهار والحيوية دون حاجة للعب أدوار خارجية.

فإشعاعات الايمان تنطلق من وجود الإنسان. يكفي إزالة طبقات الحجب التي تراكمت عليها ليتم تحسسها فوراً ودون وسيط.

فالالتزام بالدين والتدين يحدث بنحو شهودي (حدسي) دون حاجة إلى أي وسيط. فالوسائط تمنع ظهور الايمان. والايمان هو رائحة دافئة وزكية ومنعشة. فلا حاجة لأي إجبار ونقل من الخارج. ولا حاجة كذلك حتى لأية إضافة خارجية. إنها عملية يجب ان تتم تلقائياً بالضبط كانفتاح البراعم. فالمهمة الوحيدة للبستاني في هذا السياق هي إزالة الموانع وتوفير

---

١ ـ عن كتاب «السر» لاوشو.

المستلزمات لازدهار الورود. فليس هنالك من بستاني يعمل على تفتح البراعم بتلاعبه بها أو بتفعيل محفزات خارجية.

و «الإلزام الديني» لا ينتهي بالضرورة إلى «الالتزام بالدين». فالالزام الديني استعاضة استعارية وليس بديلاً عن الايمان الحقيقي. ففي «الالزام الديني» أو «التطبيع الديني» يتم رفد الأشخاص بالايمان ولكن في «الالتزام بالدين» ينمو الايمان في الباطن! والايمان المتأتي من «الإلزام الديني» ظاهري واصطناعي ووجوده قائم على مصدر خارجي لرفد الإيمان. ولكن في «الالتزام الديني» يكون الايمان باطنياً أصيلاً ينشأ وينبع من قلب صاحب الايمان.

و «الإيمان» شعور غريزي نقي، لا حاجة إلى جهد وفير لتبلوره، بل على العكس لو تبذلوا الجهد وتكثفوا المساعي لتحققوا الايمان اصطناعياً لفقدتم في نفس تلك اللحظة الايمان الحقيقي. ففي الالتزام الديني الذاتي، يكون الايمان حدثاً مفاجئاً ونوعياً يظهر دون وسيط بينما في «الالزام الديني» يظهر الايمان مبرمجاً وباعتباره منتوجاً استعارياً يتوقف وجوده على رفد غيري.

فالبراءة والطهر والاشراق والشهود والاكتشاف وعدم التظاهر والاخلاص والصدق كلها من الانعكاسات الطبيعية للايمان بالله وليس بالامكان تحقيق اي منها بالتعليم ولعب الادوار تعليمياً واجراءات التربية الاصطناعية والانتظامية.

«لا، للعلاج النفسي»

يقول «الكس هوارد»:

«العلاج النفسي هو عملية تغريب الإنسان عن كينونته».

***

يقال أن «العلاج النفسي» هو عملية تهدف لتقريب المتعالَج من الحالة «الطبيعية» و «المتوازنة» ليتمكن من «التواؤم» مع «معايير» مجتمعة. أو يقال: أن العلاج النفسي هو إيجاد تغييرات مناسبة في النظام العقائدي للشخص لتحقيق الحياة (المتوازنة».

ومجموعة أخرى تُحدد الهدف من العلاج النفسي بأنه ايجاد قدرة «التواؤم» و «المرونة» عند الشخص لعله ينجح في ايجاد التناسق والاتزان بين الاحتياجات والمحفزات والدوافع والاندفاعات الغريزية.

أما السؤال الأساسي فإنه: يا ترىٰ لو يحقق الانسان سلوكاً سوياً ومتزناً بمثل هذا المستوى، فهل سوف يتبقى لديه بعد ذلك أي دافع للحركة والتعالي؟

ولو يتوقف كل شيء عند حالة «الاتزان» ماذا سيحدث لحياة الانسان؟

ألم تظهر جميع التقصيات والمساعي الانسانية على مر التاريخ وفي رحاب المساحات الجغرافية، في ظروف خروجه عن دائرة «الاتزان»؟ ألا

يقول عالم المعرفة الكبير «بياجه»: لا تتنامى بُنى الذكاء إلّا إذا تحولت البنى السابقة من حالة «الاتزان» إلى حالة «اللا توازن». إنه يمضي في كلامه حتى يقول: «لحسن الحظ لا يحقق الإنسان الاتزان أبداً».

فلماذا «لحسن الحظ»؟ لأن الانسان لو كان يتمتع بحالة الاتزان بشكل دائمي، لن يتوفر لديه بعد ذلك أي دافع للارتقاء إلى مستويات أسمىٰ. إذاً، يجب حقاً أن نقول: قوام طلب الكمال من قبل الإنسان يكمن في فقدانه التوازن.

اننا، في الحقيقة، لا نهتدي إلى دائرة «التعالي والتنامي» ما لم نخرج من دائرة «الاتزان». اننا لا نحقق «التنامي والازدهار» ما لم نتحول من حالة «التمتع بالاتزان» إلى حالة «فقدان الاتزان».

فهل أن تمتع الناس في حياتهم في بعض بمنتهى الراحة والرفاه والاتزان من شأنه أن يكون مفيداً وبناءاً ومنمّياً؟!

وهل يمكن الحكم بجد بأن الشخص المتسم بالرضا والاتزان والهدوء هو أفضل حالاً من المتسم بعدم الرضا واللا توازن واللا هدوء؟

وهل يمكن القول أن الإنسان المتوازن المتنعم بالراحة أكثر نمواً من الانسان المسلوب الاتزان والراحة؟ لو كنا نستند إلى مثل هذه القاعدة لكان يتوجب علينا أن نشطب أسماء أغلبية العلماء والفنانين والكتّاب ومفكري العالم ممن يعتبرون نجاحهم وإبداعهم ونشاطهم ثمرة ما اختبروه من تعارضات وآلام ومصائب وظروف قاسية وتشرد وتحديات منهكة وهدامة، من قائمة المتمتعين بالسلامة.

فيا ترىٰ لو كان تشوش الشاعر مولوي من لوعة اللقاء يُخمَد بآليات العلاج النفسي، ومعاناة داستايوفسكي وتعارضات ونجوك وعقد بروست وشعور اديسون بالنقص وحالات نيتشه الجنونية وخبرات الفشل عند روسو وهواجس الشاعر سهراب واكتئاب الكاتب «هدايت» وأطماع وولف

واضطرابات سارتر ووساوس فرويد ونوبات الهستيريا التي كانت تداهم يونغ ولا قيدية جويس وانانية واجنر في تهتكه وإحباطات جول ورن خلال رحلته المعروفة، لو كانت تعالج منذ بداية تبلورها من قبل المشاورين والمعالجين النفسانيين، هل كان سوف يتسنىٰ لنا أن نشهد ظهور كل هذه العبقرية والابداع والاستدراك المضاعف من قبل هؤلاء المبدعين العظام؟[١].

قد يعارض «المشرفون الخارجيون» هذا الكلام انطلاقاً من حسن نواياهم ولكن.. لا بأس فارتياح البعض هو بمثابة فرض حياة مدمرة على البعض الآخر. فروائي بارع مثل تولستوي يتبنى فهماً عميقاً لهذه الصعاب والاختلالات البناءة ويوضح الغوامض المرتبطة بحقيقة التقدم والسواء.

وهل يمكننا التوثق مما يعنيه المعالجون النفسانيون من مفهوم «الاتزان النفسي»؟ متى يمكن وضع حد فاصل ومعين بين الرضا واللا رضا وبين الاتزان واللا اتزان أو السلامة وانعدامها وبين الهناء والشقاء؟ وهل سوف يكون للانسان بعد توصله إلى «الاتزان» وتحقيقه الرفاه واللذة والهدوء جراء اختباره حالة الاتزان هذه، دافع لمواصلة حياة مثيرة للتحديات، والمجازفة من اجل تحقيق تقدم أفضل؟

«ينبغي ان تتجرد أية خلية حية عن اتزانها الكيميائي في تعاطيها مع البيئة. فانعدام الاتزان هو الذي يوفر للخلية الطاقة المحركة لتلبي احتياجها في سياق اداء وظيفتها والتكاثر»[٢].

وفيما لو كان هدف الخلية الحية من الحياة هو التواصل الى التوازن

---

١ ـ لمزيد من الاطلاع حول مسيرة حياة الشخصيات التاريخية الكبرى ودور العقد والنقائص والتعارضات فيها، انظر كتاب: «مبدعي العالم الجديد» للويس انترمايز.

٢ ـ نقلاً عن كتاب «تحديات مع المشاورة والعلاج النفسي»، الكس هوارد.

والتوقف عند تحقيقه، ألا تكون قد قضت، بنفسها، على نفسها بالموت؟

إذاً، يمكن القول:

ـ الاتزان يتوقف على انعدام الاتزان!

ـ الفرص البناءة وليدة مواقف الخطر الفتاكة!

ـ المستويات الأعلى من القابليات والقدرات يصنعها كمٌّ أكبر من العقد والنقائص.

ـ طموحات الهدوء تتأتىٰ من فقدان الهدوء!

ـ خبرات التقدم تنبثق من حالات عجز الانسان!

فلماذا يتعين علينا تقصي العلاج لهذه الاختلالات والنقائص وحالات انعدام التوازن البناءة والمبدعة؟!

التقدم الحقيقي والإبداع الأصيل يحصل (لدى كبار الشخصيات) عند ابتعاد الانسان عن دائرة «الاتزان» وفراره من فخ «المنطق» و «الحياة المألوفة» و «التفكير العادي» وتجرده عن السلوك «الطبيعي السوي». لأن الانسان العقلاني يوائم نفسه مع الوضع القائم بينما الإنسان الغير عقلاني يغيّر الوضع القائم! من هنا، ولتحقيق أي تغيير جاد في عالمنا المعاصر يجب ان نعقد الآمال على الأشخاص الغير عقلانيين، الغير عاديين والغير متوازنين والغير طبيعيين!

«لا، للاختراع»

يقول الشهيد مرتضى مطهري:
«السعادة الخارجية تمنع تحقق السعادة الباطنية»[1].

***

الانسان يطرد في اختراع «الذات». ولكن هيهات أن تكون «الذات المخترعة» هي «الذات الحقيقية».

الانسان يواصل اختراع «السعادة». ولكن هيهات أن يكون بامكان «السعادة المخترعة» أن تنتج «الهناء الثابت».

الانسان يواصل اختراع «الثروة». ولكن هيهات أن تقدر «الثروة المخترعة على تحقيق «الغنى» للانسان.

الانسان يطرد في اختراع «المعلومات». ولكن هيهات للمعلومات الاستعارية أن تحث الانسان نحو «المعرفة».

الإنسان يواصل اختراع «الوجاهة والشهرة» ولكن الوجاهة والشهرة الاعلاميين لا يمكنهما إضفاء «المحبوبية» على الانسان. فلماذا؟

---

١ ـ كتاب «الفطرة».

يا ترىٰ لماذا يبعد اختراع هذه الفضائل والطموحات الجميلة، الانسان عما يتقصاه؟

لماذا تفتقد اللذائذ المخترعة دافعية اللذائذ الحقيقية؟

لماذا لا تحقق الثروات المخترعة، القناعة والاستغناء لنفس الإنسان؟

الجواب واضح، وهو: لأن ما يخترع من الخارج يمنع ترشحه من الباطن. وما نضيفه على وجودنا من الخارج نسدل به حجاباً ضخماً على ينابيعه الباطنية.

فالسعيد الحقيقي هو من لا يتأثر ينبوع سروره وقاعدة نشاطه بفعل عوامل خارجية.

والثري الواقعي هو من لا تفني ثروته أية حادثة خارجية.

إذاً، الذات الحقيقية للإنسان لا تتحول من كمونها إلى طور الفعل إلّا عندما لا تغطيها ذوات زائفة وشخصيات واهية باعتبارها نقباً خادعة.

«لا، للانصياع»

يقول اريك فروم:

«فعل التمرد هو الأسلوب الوحيد للانصياع للطبيعة».

***

لآلاف السنين رددت آلاف المذاهب والأديان والمدارس الفكرية كلاماً عن فضيلة «الطاعة» ورذيلة «التمرد» حتى صارت لفظة «الطاعة» ترادف «النجابة». و «عدم الطاعة» يعتبر من الخبائث والأدران!

ولكن ما شهده تاريخ الإنسان سيما في مراحله الوضاءة، من خبرات التقدم الكبرىٰ والنجاحات العظمى والابداع والابتكار والبسالة والشجاعة نشأت أغلبيتها عن (فعل التمرد). وكما يقول اريك فروم:

«بدأ تاريخ الانسانية بفعل التمرد وسوف ينتهي إلى خاتمته التاريخية، على الأرجح بفعل من نمط الطاعة».

إنه يرى بالاستناد إلى الأساطير العبرية وكذلك اليونانية منها، يرى أن أي تحول ظهر على مر التاريخ إنما كانت بدايته مرفقة بالتمرد.

فآدم وحواء، أثناء عيشهما في جنة عدن، كانا يمثلان جزءاً من الطبيعة هما منسجمان تماماً معها. ولكن تمردهما الرمزي كان أول خطواتهما

لإختبار «الذات»، والحرية والارادة والاستقلال.

يقول «اريك فروم» بأن الانسان قطع ارتباطه مع «الأرض» و «الأم»، أي انه قطع حبل صرته وانتشل نفسه من حالة التواؤم السابقة[١].

ولاكتساب القدرة على التمرد يجب التحلي بجرأة اختبار الخطأ. فالتمرد يتطلب التجرد عن «العادات الهوجاء» و «المقاييس الغير قياسية». ففي هذه الحالة تتوفر خلفية التجدد والفكر التباعدي وإثارة الانبهار.

وأغلبية النهضات الاجتماعية والتحولات الفكرية والانقلابات الفلسفية والفنية ظهرت بفعل أشخاص تجرّؤوا على النطق بكلمة (لا) لما واجهه الجميع بكلمة «نعم». فهذا التمرد الذي يمثل بحد ذاته أفضل أنماط الانصياع، للمصير والقضاء المُقرر للعالم، وأكثر مجلبة للثقة ربما يعتبر فعلاً إبداعياً، ناشطاً ومُنمّياً على جميع الأصعدة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية و... في سياق بناء قواعد المخططات الحديثة والتخطيطات الذهنية المُنفِذة شريطة ان نتمكن من الفصل بشكل أساسي بين «التمرد الأناني» و «التمرد الخيري».

---

١ ـ انظر ترجمة مقال: «التمرد، امر نفسي وأخلاقي»، إعداد اريك فروم، نشرة «انديشه جامعه»، العدد (٣١)، ص ٧٠.

«لا، للتعلم»

يقول «اوشو»: «التعلم» يمنع التيقظ، ألقه جانباً ليزدهر الوعي».

***

كان مؤسس نهضة إزالة المدارس «ايفان ايليتش» قد قال:

«عندما يفتتح باب مدرسة ينغلق باب التعليم والتربية».

فالتعليم والتربية الانتظامية برأيه، يعنيان فن منع التلاميذ من اكتساب العلم أو، بالضبط، ما يرتبط بحياتهم من المعرفة، وارغامهم على تعلم موضوعات يستبعد أن يكون لها أي ارتباط بحياتهم الحقيقية.

ربما لنفس هذا السبب كان «تي. اس. اليوت» قد قال:

هذه الفكرة التي تقول: «يمكن معالجة مرض العالم الجديد عن طريق نظام التعليم» وهم لا غير. بل خلافاً لذلك يضفي نظام التربية والتعليم العام الطابع السطحي والكلي على أخلاقيات القيم والأذواق.

فنظام التعليم والتربية الحقيقيين يجب أن يحاول احياء القيم وإغناء الطباع وتعميق الرؤىٰ وإثارة دافع التقصي وتعزيز الاندفاع نحو التعلم بينما نجد أن المنتوج الغائي والحصيلة النهائية لنظام التعليم والتربية الانتظامي هو غالباً استئصال نفس تلك الفضائل التي عددناها.

فنظام التربية والتعليم الحقيقي يجب ان يُحطّم الأطر والقوالب ويزيل الفخاخ وينسف العادات والتكبلات والطرق المسدودة في عالم فكر الإنسان، لتتوفر للأرواح المتلهفة والأفكار المُبدعة والقلوب الوضاءة والعقول النقية والرؤى الحرة والسيالة، قابلية الانطلاق من حيز ما هو موجود إلى ما يجب أن يكون.

ان المنهج المدرسي والفاعلية الأصيلة لنظام التربية والتعليم الانتظامي تؤدي في النهاية إلى شل الفكر وكبح الأذهان المتنامية.

فالتعليم هو بديل واهٍ للاستبصار كما هو تعلم الأفكار بديل مزيف لتفعيل الأفكار. فمن يتصور أن العلم هو بديل للوعي فقد ارتقى منصب العلماء في خياله فقط. فالتعلم يعرقل مسيرتنا نحو «التحقيق» كما يحول اكتسابنا دون اكتشافنا.

التعلم انتاج كمي لتكديس الذهن تدريجياً أما الاستبصار والتفكير والتيقظ فإنها أفعال باطنية تحدث شهودياً فلا تفرض الحلكة على الفكر بل تضيؤه.

فالوعي الشهودي يُفرغ الفكر بينما يملأه التعلم. والشهود والاكتشاف يضرمان نيران الاندفاع في الذهن ويثيران لهفته ويزيدان قدرته على الاستيعاب، أما التعلم فإنه يعين في سياق اشباع الذهن واكتظاظه.

والآن لابد من القول ان ما أدخلنا به السرور إلى قلوبنا من قاموس «التعلم الانتظامي» ليس هو إلّا تدمير وتضليل لعملية «التعلم الحقيقي».

الفصل الثاني:

«موضوعات من نوع آخر»

«تعاريف من نوع آخر»[1]

الاتحاد (Alliance): هو بحسب السياسات الدولية اتفاق بين لصّين أدخلا يديهما إلى اعماق جيب بعض حتى صار بإمكانهما نهب لص ثالث بفراغ بال. (عن امبروز بيرس)

الإطراء (Applause): هو صدى كلام ركيك ومتعفن من فم أبله. (عن امبروز بيرس).

المزاحم الوقح أو ذبابة الاصطبلات: هو من يتحدث في غير محله (أو يدخل في غير أوانه).

النصيب أو القضاء والقدر (Destiny): حجة الظالم للظلم وحجة الأبله عند الفشل.

التاريخ (History): ايضاح، أغلبه مزيف، حول وقائع أغلبها غير ذات أهمية أوجدها حكام أغلبهم متحايلون وجنود أغلبهم أغبياء.

(المتفغم) (كثير الشكوى والتذمر): إنسان هتاك تجعله الرؤية الخاطئة أن يرى الأشياء كما هي لا كما يجب أن تكون.

(السياسة) (Politic): حرب المصالح متقنعة بسيماء الحرب من أجل

---

١ ـ ما يذكر في هذا المجال من الفصل مقتطفات من «قاموس المتفغمين» أو مصنف المتفغمين، إعداد «جاناتان جرين».

المبادئ.

(المتمرد) (Rebel): المتحيز لنظام جديد لم يقدر على فرض حكومته.

(الثورة)(Revolution): في السياسة هي: تغيير مفاجئ في نمط النظام اللا أخلاقي..

(حفلة العرس) (Wedding): مراسيم يتعاهد خلالها شخصان أن يتوحدا. أحدهما يتعهد أن يصبح (لا شيء) و (لا شيء) يتعهد أن يكون تحمله ممكناً.

(الزواج): (Marriage): مجموعة تتكون من رجل وامرأة وغلامين فيكون مجموعهم شخصين.

(الجرأة) (Dare): هو الخوف من أن يُعرَّف الشخص جباناً. (عن الن اسميث).

(الأسرة) (Family): هي مركز جميع الخبائث الاجتماعية، دار عجزة للنساء المتكاسلات، زنزانة مع الأعمال الشاقة لرب الأسرة وجحيم الأطفال. (عن اغوست استريندبرغ)

(السعادة أو الحظ السعيد) (Fortune): يعني التمتع الدائم بخداع النفس. (عن جوناتان).

(صناعة الإعلان) (davertisign): سوط يسوق الإنسان إلى فخ أفضل للفئران. إنها رؤية تعتب على الإنسان لقلة آماله (عن أ.أس. ترنر)

(السياسة) (Politice): هي فن ردع الناس عن المساهة في أمور ترتبط بهم بالذات. (عن بول والري)

(الدَين أو السلفة) (Credit): الشاهد الثابت الوحيد لثقة الانسان بالإنسان. (جيمس بليش ١٩٢١ ـ ١٩٧٥)

(الديمقراطية) (Democracy): عملية إحلال الانتخاب، من قبل أغلبية تفتقد الصلاحية، بدلاً من التعيين من قبل أقلية فاسدة. (عن جورج برنارد شو)

(الإعلام) (Advertis): فن صناعة الأكاذيب التامة من الحقائق النـاقصة. (عن ادغاراي شوف)

أو: فن اقناع الآخرين بشيء يتقبلونه تلقائياً (عن آبو إبان)

(التاريخ) (History): بركة آسنة يرغب الإنسان في التمرغ فيها.

(الليبرالي) (Liberal): هو أبعد نظراً من أن يمسك بمخاطبه عند الجـدال. (عن روبرت فروست).

(الحرية) (Freedem): حيز التسامح الذي يبديه الأقوياء إزاء الضعفاء. (عن القاضي لورند هولند)

(التسلية) (Entertainment): إبتهاج أولئك الذين يعجزون عن التفكير. (عن الكساندر بوب).

(الحب) (Love): هو في المـجتمعات العـصرية ليس إلّا تـبادل هَـوسين عابرين واتصال جسمين. (عن نيكولا شامفور)

(المنتقد) (Critic): أعرج يعلم غيره العدو. (عن جانينغ بولاك)

(الحاكم) (Governer): سياسي ناجح قضى نحبه. (عن توماس ب ـ ريد)

(الانسان) (Humankind): مغرور ذاتـياً ومـتواضـع للـضرورة (عـن بـير روردي)

(التكفير أو الانشقاق) (Heresy): اسم آخر لحرية التفكير. (عن جراهام غرين)

(التواضع) (Modesty): فن بديع للتظاهر مع تجاهل الواقع. (عن هرفورد)

(التزمت) (Bigotry): يعني مضاعفة المجاهدة عندما تنسى الهدف. (عـن جورج ساندوز)

الانسان (Human): حيوان ذكي يسلك كالغبي. (عن البرت شورارترز)

(الشهادة) (Martyrdom): الطريق الوحيد الذي بامكان الشخص الغير كفوء

أن ينال الشهرة عن طريقها. (جورج برناردشو)

(القديس): من ينبغي وضعه في عداد المجرمين إلّا إذا ثَبُت عكس ذلك.

(الرياء) (Hypocrisy): احترام يوليه عديم تقوى للتقوى. (عن فرانسو دوك دولاروشفوكو)

(المنطق) (Logic): فن الوقوع في الخطأ بثقة.

ـ الفرق بين الديمقراطية والدكتاتورية: في الديمقراطية تمنح صوتك أولاً ثم تطيع وفي الدكتاتورية لا ينبغي أن تهدر وقتك. (عن تشارلز بوكفسلي)

(الدعاية) (Propaganda): فرع من فن الكذب يخدع الأصدقاء، عادة، أكثر من الأعداء. (عن كرنفورد)

(التعليم والتربية) (Education): مصنع حكومي لانتاج المقلدين (عن نورمان داجلاس)

(الزواج) (Marriage): اتفاق شخصين على قول كذبة واحدة. (عن كارن دوربين)

(المتفائل): هو من يعرف ما أسوأ العالم مكاناً والمتشائم هو من يكتشف هذه القضية صباح كل يوم من جديد. (عن بيتر يوستينوف)

***

(العصيان المسلح) (Insurrection): انقلاب فاشل (ولكن مستمر).

(الحرية)(Liberty): أحد أثمن ثمار التخيل (عند السذج من متفائلي العصر).

(علم الاساطير أو الميثولوجيا) (Mythology): هو دراسة مجموعة من آراء الشعوب البدائية حول انطلاقة تاريخهم وأبطالهم وآلهتهم بما يختلقونه فيما بعد من تبريرات حقيقية.

(التعلم) (Learn): هو إفراغ الذهن.

(الغرفة) (Room): حيز تتمتع فيه بالحرية.

(السلام) (Peace): في الشؤون الدولية هو دورة خداع تتخلل دورتي حرب.

(المشاورة) (Counsult): هو البحث عن شريك في الخطأ.

(العدميّة أو النهلستية) (Nihilist): الطريق الوحيد لمغالبة حب الدنيا والانانية من أجل اكتشاف المفهوم الحقيقي للحياة.

(الزهد) (Abstinence): أسلوب تقشفي لتحقيق حياة مرفهة.

(المتقي) (Pietist): من يحفظ نفسه نزيهاً في أعماق التلوثات.

(الدبلوماسية) (Diplomacy): قراءة تفاوضية لقانون الغاب من أجل إخفاء وحشية الفكر السلطوي.

(اليأس) (Disappointment): هو المسافة البعيدة بين ما نتوقعه وما يجب أن نتوقعه.

(معرفة القراءة والكتابة) (Literacy): في القرن الجديد هو نشر المظلة الثقيلة للمعلومات فوق درة «المعرفة» الخالصة.

«فكاهات من نوع آخر»

ـ في الديمقراطية تتفوَّه بما يروق لك وتفعل كل ما يُملىٰ عليك. (عن جرالدباري)

ـ الزواج هو دوماً أعمق استيعاب لفن التظاهر المتبادل بين شخصين (عن ويكي بام).

ـ ولو طال عمرك فإنك سوف‌ترى ان كل انتصار ينتهي إلى الفشل. (عن سيمون دوبوآر)

ـ الثمرة الوحيدة للاجتماع هي أنها تجعل الإنسان يعرف قيمة الوحدة. (عن شارل ستيغود)

ـ ليست من نظرية علمية تحظى بتقبل العامة إلّا عندما تفقد مصداقيتها تماماً. (عن العالم الانكليزي اوغلاس يتز)

ـ السبب العام للقضية هو حل القضية (عن اريك سوريد)

ـ جماعة الانكليز ينجزون كل عمل بحسب المبادئ: فبحسب مبادئ حب الوطن يحاربونك وبحسب مبادئ التجارة ينهبونك. وبحسب مبادئ الاستعمار يسيئون استغلالك. (عن برناردشو.

ـ المتشائم هو من يخيل إليه أن الجميع على مثل خبثه، ولهذا ينفر منهم. (عن برناردشو)

ـ الثورات لم تخفف من وطأة الظلم أبداً بل نقلت عبئه إلى الكتف الآخر. (عن برناردشو)

ـ القانون مثل بيت العنكبوت يقع في فخه كل شيء صغير. بينما الأشياء الكبيرة تمزقه وتخترقه. (عن المُقنِّن اليوناني «سولفان. س» ٦٤٠ ـ ٥٨٨ قبل الميلاد)

ـ الكثير من نوبات الاكتئاب ليست إلّا ظهور صدمة تلقي الإلزام بالطهر. (عن الدكتور ويلهام استنحل)

ـ الخبرة، مشط تقدمه لك الحياة بعد سقوط شعر رأسك. (عن جوديت استرون)

ـ الحكومة تسمي عنفها قانوناً وعنف الأشخاص جريمة. (عن ماكس استرينر)

ـ عندما يتعبد الناس في أوان الشيخوخة، يقدمون فضلات الشيطان إلى الله.

ـ الفكاهة نوع من المرايا يرى فيها الشخص ثورة أي شخص كان عدا محياه هو نفسه. (عن جوناتان سويفت ١٦٦٧ ـ ١٧٤٥)

ـ العهود والنُقل ـ المكسرات ـ وضعت لتُحطم) (عن جوناتان سويفت)

ـ كلما زين الانسان مظهراً للعبودية الجديدة باسم الحرية، يُقنع نفسه بأنه قد تحرر. (عن اشيل تورينه)

ـ خلق الله الانسان ولما لم يجده وحيداً بما يكفي، منحه أنيساً (زوجة) ليشعر بقدر أكبر من الوحدة. (عن الشاعر الفرنسي بول والري ١٨٧١ ـ ١٩٥٦)

ـ العقل هو أقدم الأُطر المحددة. (عن غرويدال)

ـ كثير من الأشياء نستحقر شأنها لكي لا نُرغم على اعتبار أنفسنا حقراء. (عن المصلح الأخلاقي الفرنسي «ماركس دودونارج)

ـ الافتقار إلى المواهب لم يعد كافياً. (عن غرويدال)

ـ بعد وفاته أحببته، هذه حكاية كل حياة وممات. (عن غرويدال)

ـ لا تخافوا عندما يوجه إليكم أعداؤكم الانتقاد بل إحذروا عندما يمتدحون. (عن ودانغ جيانغ)

ـ عندما لا يستوعب المستمع كلام المتحدث ولا يعلم المتحدث ماذا يقول، يسمى الكلام فلسفة. (عن والتر ١٦٩٤ ـ ١٧٧٨)

ـ لولا أن الله موجود أساساً لكان يجب أن يُخلق (عن والتر)

ـ جميع الناس سوف يكونون مجانين أبداً. ومن يخيل إليهم أن بالامكان علاجهم هم أكثر جنوناً من الجميع. (عن والتر)

ـ المصلح الاجتماعي هو من يركب زورقاً قاعدته زجاجية في بركة آسنة. (عن جيمس واكر ١٨٨١ ـ ١٩٤٦)

ـ ليس هنالك من عمل غير ممكن لمن ينبغي عليه أن لا يقوم بذلك العمل (عن ويلر)

ـ التحكم هو ارغام الناس للسير في طريق أنت ترغب فيه، باندفاع ولهفة. (عن الجنرال الاميركي وليام دستمورلند)

ـ ليس كل ما يُضحىٰ من أجله بالنفوس هو بالضرورة حق. (عن نوربرت فاينر)

ـ يخيل للشباب في الوقت الحالي أن المال هو كل شيء وعندما يتقدم بهم العمر قليلاً يحصل لديهم اليقين بذلك. (عن الفكاهي الايرلندي أوسكار وايلد ١٨٥٤ ـ ١٩٠٠)

ـ أكثر الناس ليسوا أنفسهم. أفكارهم هي حرية الآخرين وحياتهم التقليد

وعواطفهم اقتباس. (عن أوسكار وايلد)

ـ لو كنا نحن الرجال نتزوج نساءاً نليق بهن لساءت حياتنا. (عن أوسكار وايلد)

ـ حب الوطن من فضائل الأراذل. (عن أوسكار وايلد)

ـ السطحيون فقط يدركون عمقهم. (عن أوسكار وايلد)

ـ عندما يريد الآلهة معاقبتنا يستجيبون لأدعيتنا. (عن أوسكار وايلد)

ـ كلنا حُكم علينا بالسجن الانفرادي المؤبد داخل جلودنا. (عن تنسي وليامز ١٩١٤ ـ ١٩٨٣)

ـ من يتعذر عليه إضمار الحب، لابد أن يتعلم التملق. (عن جوهان وولف كانغ غوته ١٧٤٩ ـ ١٨٣٢)

ـ الإبداع في العلم يعني ٢+٢ = ٥ (عن كستلر)

ـ الكثير من الناس يرون أنهم استقطبوا من قبل الله والطبيعة بينما هم منبوذون من قبل الناس. (عن القديس الانكليزي وليام ر. اينج ١٨٦٠ ـ ١٩٥٤)

ـ التكفير هو الاسم الآخر لحرية التفكير. (عن الكاتب الانكليزي جراهام غرين)

ـ هنالك دائماً طريق صحيح وطريق خاطئ ولكن الطريق الخاطئ يبدو دوماً أكثر منطقية. (عن الكاتب الايرلندي جورج مور ١٨٥٢ ـ ١٩٣٢)

ـ كلما ازداد الفيلسوف وعياً بنقاط ضعف نظريته ازداد جدية واستناداً إليها في كلامه. (عن الكاتب الفكاهي دون ماركيس ١٨٧٨ ـ ١٩٣٧)

ـ الأحياء هم أموات يقضون فترة العطلة. (سالوادور ـ مادياغا ١٨٨٦ ـ ١٩٧٨)

ـ الحرية تعني المسؤولية، ولهذا يهابها أكثر الناس. (عن برناردشو)

ـ الماضي هو الجثة الوحيدة التي تفوح منها رائحة طيبة. (عن كاتلي)

ـ السياسة هي مظهر عدم البلوغ الانساني (عن ورابوتين)

ـ الشيء الوحيد الذي نتعلمه من الخبرة هو ان الخبرة لا تعلمنا أي شيء. (عن اندرا هورا)

ـ الحياة أهم من أن يتحدث عنها الانسان بجدية. (عن أوسكار وايلد)

ـ الشباب يتصورون ان المسنين اغبياء ولكن المسنين يعلمون ان الشباب أغبياء. (عن جورج تشيمن).

ـ لو كنتم تهابون الوحدة، احجموا عن الزواج. (عن انطوان تشخوف)

ـ الزواج الجيد يكون بين امرأة عمياء ورجل أصم. (عن مونتاني)

ـ الشعراء الغير مستمرسين يسقلدون والمتمرسون يسرقون. (عن تي.اس.ايوت)

ـ التاريخ عبارة عن تكرار لا ينتهي لنهج خاطئ في الحياة. (عن لورنس دورل)

ـ عندما يقول شخص ما أن: «الانسان يجب أن يكون واقعياً»، كونوا على ثقة أنه يمهد لانجازه خبائة ما. (عن إيسايا برلين)

ـ المنقح اللغوي هو من يعزل القمح من القش ليَطبع القش.

***

ـ الفرق بين الوعظ والسياسة: الوعظ هو ما يقال ولا يطبق، والسياسة هي ما ينفذ ولا يقال.

ـ الشارب وُضِع ليمرّر من تحته شيء ما.

ما نسميه الرأي العام هو عادة المشاعر العامة. (عن بنجامين ويسيلي).

ـ حفلة العرس هي مراسيم ضرورية لما قبل طلب الطلاق. (عن فرهورد)

ـ لا يثير المشاكل أي شخص أكثر ممن يبادرون لعمل الخير. (عن القديس الانكليزي ماندل غراتين)

ـ عندما يفكر الجميع بنمط واحد، في الحقيقة لا يفكر أي شخص. (عن والتر ليبمن)

«أمثال من نوع آخر»[1]

ـ الزمان يخلق كل شيء، ولكنه يدمره. (مثل اسلوفاكي)
ـ من يتعذر عليه الغناء يغني باستمرار (مثل ألماني)
ـ الانسان دوماً يتقصى ما لا يريد (مثل دنماركي)
ـ من يتعجل كثيراً يتخلف في الطريق (مثل من الجبل الأسود)
ـ الكيس الخاوي أثقل من الكيس الملآن. (مثل بلغاري)
ـ المتعة، بذرة الهم. (مثل من الجبل الأسود)
ـ معرفة كل شيء تعني عدم معرفة أي شيء. (مثل ايطالي)
ـ اللقاء هو بداية الفراق. (مثل ياباني)
ـ عندما يُغلق باب تتفتح مائة باب. (مثل اسباني)
ـ عدم التعود علىٰ أية عادة هي أسوأ العادات (عن ولز)
ـ ليس هنالك أتعس حظاً ممن يكون سعيداً دائماً. (مثل هولندي)
ـ «كل مكان» هو ليس بمكان. (مثل لاتيني)
ـ كلما ضاق القفص، بدت الحرية أكثر حلاوة. (مثل ألماني)
ـ التعقل الزائد، ليس بفعل عقلاني. (مثل فرنسي)

---

١ ـ نقلاً عن «مقتطفات من الأمثال العالمية»، د. سيف الله أسدي.

ـ «الأمثل» هو غالباً عدو للجيد. (مثل ألماني)

ـ بذرة كل عظمة هي الصِغر. (عن ولز)

ـ لا تختبر الفوز ما لم تختبر الفشل. (مثل روسي)

ـ سوء الحظ مثمر. (مثل روسي)

ـ الحظ يُقبل على من يَفر منه، ويَفر ممن يتقصاه. (مثل سويدي)

ـ التشوش ينتهي غالباً إلى النظام والتنسيق (مثل ايطالي)

ـ الانسان لا يتعلم من الفوز شيئاً ولكنه يتعلم الكثير من الفشل. (مثل ياباني)

ـ لو كان الشيطان يموت، لكان القليل من الناس جداً يبادر للعمل لمجرد اكتساب رضا الله. (مثل اسكتلندي)

ـ لو تداعب القُرَاص يلذعك ولو تمسك به بإحكام يكون أملساً مثل الحرير. (مثل فرنسي)

ـ رب البيت هو الخادم الأكبر. (مثل اسلوفاكي)

ـ لو كنت مطالباً بكل شيء، سوف تفقد كل شيء (مثل من الجبل الأسود)

***

الفصل الثالث:

«إرشادات عكسية»

«إرشادات عكسية»

مقتطفات من كتاب «رمل وزبد» للأديب جبران خليل جبران:

الفشل في حياته خير من النجاح في ادّعائه.

***

قد تعلمت الصمت من الثرثار، والتساهل من المتعصب، واللطف من الغليظ. والأغرب من كل هذا أنني لا أعترف بجميل هؤلاء المعلمين.

***

سكوت الحسود كثير الضوضاء.

***

إذا بلغت إلى غاية ما يجب ان تعرفه، فأنت على عتبة ما يجب أن تشعر به.

***

إذا كان كل ما يقولونه في الخير والشر حقيقياً، فإن حياتي كلها سلسلة من الجرائم

كثير من المذاهب كزجاج النافذة، نرى الحقيقة
من خلالها، ولكنها تفصلنا عن الحقيقة.

***

الأشجار أشعار تكتبها الأرض على السماء، ونحن نقطعها
ونصنع الورق منها لندون فيه فراغنا وبلادتنا.

***

لم أتفق قط مع ذاتي الثانية كل الاتفاق. ويلوح لي
أن سر القضية كائن بيني وبينها.

***

إذا شئت أن تملك شيئاً فلا تدّعِه لنفسك.

***

أوقفت ضيفي على عتبة بابي وقلت له: بربك لا تمسح
قدميك وأنت تدخل، بل امسحها وأنت تخرج.

***

منبر الإنسانية قلبها الصامت لا عقلها الثرثار.

***

يحسبونني مجنوناً لأنني لا أبيع أيامي بدنانيرهم
وأحسبهم مجانين لأنهم يظنون أن أيامي تباع بالدنانير

أحب أن أكون الأصغر بين ذوي الأحلام، الراغبين في تحقيق أحلامهم، ولا أكون الأعظم من بين الذين لا أحلام ولا رغبات لهم.

***

الوحدة عاصفة صماء تحطم جميع الأغصان اليابسة
في شجرة حياتنا، ولكنها تزيد جذورنا الحية ثباتاً
في القلب الحي للأرض الحية.

***

أسمى الفضائل في هذا العالم ربما تكون أدناها في العالم الثاني

***

ليس الموت بأقرب إلى الشيخ منه إلى الطفل الرضيع،
والحياة كالموت.

***

ماذا أقول في المطارِد الذي يمثل دور المطارَد؟

***

عرفت في حياتي رجلاً حاد السمع ولكنه كان أبكم.

***

ليست قيمة الإنسان بما يبلغ إليه، بل بما يتوق للبلوغ إليه.

***

ليست حقيقة الإنسان بما يظهر لك، بل بما لا يستطيع أن يُظهره.
لذلك إذا أردت أن تعرفه، فلا تصغ إلى ما يقوله بل إلى ما لا يقوله.

***

الحقيقي فينا صامت ولكن الاكتسابي ثرثار.

***

إذا قال الشتاء: إن الربيع في قلبي، فمن ذا يصدق الشتاء؟

***

أنت إثنان: واحد متيقظ في الظلمة والثاني غافل في النور

***

أكثر الناس كلاماً أقلهم ذكاء، وبين الخطيب والدلّال بون شاسع.

***

يمدحني الحسود وهو لا يعلم.

***

إليك هذه الأحجية: إن العميق أو العالي هو أقرب أحدهما
إلى الآخر من المتوسط لأحدهما.

***

إذا تلذذت بمحبة قريبك زالت فضيلتك من محبتك.

***

قد تنظر من نافذة منزلك فترى بين عابري الطريق راهبة تسير
إلى يمينك ومومساً تسير إلى يسارك.
وفي سذاجتك وطهارة قلبك تقول لذاتك: ما أنبل هذه
وما أقبح تلك!
ولكنك لو أغمضت عينيك وأصغيت هنيهة لَسمعت صوتاً يتردد في الأثير قائلاً بلسانك: إن الواحدة تشدني بالصلاة والثانية
بالألم. وفي روح كل منهما مظلة لروحي.

***

الصداقة مسؤولية لذيذة أبداً. وليست الصداقة فرصة للنفعيين.

***

إذا بلغت إلى قلب الحياة تجد الجمال في كل شيء،
حتى في العيون المتعامية عن الجمال.

***

لأخينا يسوع ثلاث عجائب لم تُكتب بعد في الكتاب: الأولى أنه كان إنساناً مثلي ومثلك. والثانية أنه كان ذا كياسة وظرف.
والثالثة معرفته أنه غالب مع أنه غُلب.

***

انت رحوم إذا أعطيت، ولكن لا تنس وأنت تعطي أن تدير وجهك عمن تعطيه لكي لاترى حياءه عارياً أمام عينيك.

لعلك سمعت بالجبل المبارك، فهو أعلىٰ جبل في العالم.
فلو بلغت قمّته لم يكن لك سوىٰ أمنية واحدة وهي أن تهبط نازلاً
وتقيم مع النازلين في أعمق وادٍ.
ولذلك دُعي الجبل المبارك.

***

وفي كتاب «النبي» نقرأ للكاتب نفسه:

لا أستطيع أن أعلمك الصلاة بالألفاظ.
لأن الله لا يصغي إلى كلماتك ما لم يضعها، تعالى اسمه،
على شفتيك وينطق بها لسانك.

***

مقتطفات من كتاب «الحب، رقصة الحياة»[1].

الأشخاص الذين ينشغلون دوماً بتقصي الله وقد نال منهم الضياع والحيرة بحثاً عنه لا يهتدون إليه. بينما الذين يشرعون بالعيش بحسب ما أراد الله بدلاً من التقصي، يهتدون إلى الله. فالاهتداء إلى الله يتيسر بالعيش كما أراد هو لا بتقصيه. فالتقصي بحثاً عنه، نوع من التفلسف وليست الفلسفة أبداً جسراً بين الانسان والله، بل سور يمنع الارتباط.

---

١ ـ يتضمن الكتاب مجموعة من تعاليم «اوشو» ولكامه.

من هنا، تذكر دوماً: لا تتقصّ أبداً الكمال المطلوب. ففي غير هذه الحالة، لن يتغلغل الحب إلى حياتك. وسوف تتحول إلى مخلوق جامد متجرد عن الأحاسيس. فالشخص الذي يتقصى الكمال المطلوب فقط يكون عن الأحاسيس متجرداً وفي نفسه متألماً. فحتى لو عثر على محب أو محبوب يتوقع ان يكون الشخص الآخر متكاملاً في جميع الأبعاد. ومثل هذا التوقع ينتهي إلى نسف الحب.

***

عندما يتمتع الذهن بالصمت والهدوء (لا تشوشه أفكار مختلفة) يكون كالمرآة تنعكس الحقيقة من خلالها. والحقيقة موجودة من ذي قبل، فقد منحها الله. فالوجود بأسره يمثل حقيقته. فلا حاجة للتقصي والارتباك بل خلافاً لذلك يجب أن نوقف جميع التقصيات وأن نتعلم كيف نحافظ على الهدوء والصمت. لأننا عندما نتمتع بالهدوء والصمت سوف ندرك هذا الوضع. فالإدراك ظاهرة تحدث خلال الصمت لا اثناء التفكير والانشغال الفكري[1].

***

في العهود القديمة كان كل شيء بالعكس. كان الناس يشعرون بالرضا إزاء الأدوات والسلع المختلفة ولكنهم لا يشعرون بالرضا إزاء ذاتهم. ولهذا السبب كان بالامكان أن يولد أمثال بوذا والمسيح وكريشنو في الماضي، ولكن هذه القضية لا تحدث إلّا نادراً في

---

١ ـ انظر موضوع: لا للتقصي.

العالم العصري.

حالياً يبدو أن هذه الحالات كانت اساطير وحكايات لا غير. كأنها لم تكن واقعية. ولكن هؤلاء الأشخاص كانوا يواصلون الحياة يوماً ما. كانوا أرواحاً ناضجة، وصل وعيهم مرحلة الازدهار.

***

كلما كانت الرحلة أكثر عناءاً وأطول أمداً، كانت الخبرة الناشئة عنها أكبر قيمة. فكلما طال أمد انتظاركم لشيء ما، يكون سروركم للحصول عليه أكثر عمقاً. فبتحمل العناء فقط يتحقق السرور للإنسان.

***

لا يمكن التوصل إلى الحقيقة بالتفكير المنطقي، فليس للحقيقة أي ارتباط مع الفكر. الحقيقة تعني ما هو موجود. من هنا، فإن إدراكه وتذوقه لا يتطلبان التفكير بل نوعاً من الصمت والهدوء ليكون بالامكان، خلاله، التوصل إلى ما هو موجود دون تدخل الذهن والأفكار.

***

اما الخطوة الرابعة في سبيل الإهتداء إلى الحب فانها الصيرورة إلى «لا شيء». فبمجرد تفكيرك بأنك تحظى بشأن ما يتوقف الحب عن التذوق. فالحب لا ينبثق إلّا من باطن من لا يحظى بشأن ما.

الحب يسكن حيث يكون الفناء.

الحب لا يتدفق منك إلّا عندما تكون خاوياً.

ومستخلص جميع التضرعات هو الترحال إلى ما وراء الظلام.

وملخص جميع المذاهب هو تعليم هذا الموضوع وهو: كيف يمكن الترحال إلى ما وراء الظلام.

***

النفس ظلماء ولكن الروح وضاءة. الروح مطمورة بين ثنايا النفس. لابد من الترحال إلى أعماق باطن الذات. بالضبط كما هي عملية حفر الآبار. لابد من اختراق طبقات النفس المختلفة حتى يأتي يوم يضاء فيه وجود الإنسان بضياء الروح فجأة.

***

خبرة الحرية والتحرر ليست إلّا انبثاق نفس هذا الضياء. فالنور لابد أن ينطلق من أعماق الظلام، والروح يجب ان تتحرر من زنزانة النفس.

***

ـ ومن كتاب «الابداع والماسات أوشو» لأوشو نفسه نقتطف الفقرات التالية:

بمجرد تخلصك من الماضي، تتوصل إلى إدراك خارق، بأنك متحرر من المستقبل أيضاً.

***

لكل حيوان قدرة بلوغ الشيخوخة. أما التنامي فإنه من مزايا الإنسان وحده. ولا يدّعي هذه المزية إلّا مجموعة محدودة. التنامي في الحياة تعني السير في أعماق الباطن ـ أي حيث تستقر

جذورك.

***

الشخصية مهلكة. فأنت كلما كنت أكبر حظاً من الشخصية سوف تكون أصغر. لأن الشخصية درع تحيط بجميع أطرافك. درع تحددك، وكل محدودية هي الموت نفسه. دعني أكرر: كل محدودية هي الموت نفسه. والحي هو «اللا محدود» فقط.

***

الإنسان الحقيقي لا يمكن التنبؤ به أبداً. انه حر. لا شخصية له. لأنه يواجه في كل لحظة تحدياً جديداً يطأ بقدمه في كل لحظة مساحة جديدة.

وينظر في كل لحظة برؤية جديدة. وفي كل لحظة يجيب مراراً وكراراً من منطلق جديد. إنه لا يهرم أبداً. بل يتمتع بالشباب دوماً.

***

الحياة لا هي بذات معنى ولا دون معنى. الحياة موجودة فقط. أما إذا حاولت أن تهتدي لمعنى لها، فإن ذلك المعنى ليس هنالك بالطبع. أنت تبدع عبثية الوجود ذاته. ويستتبع ذلك اليأس وتشوش البال... الحياة موجودة بشكل حتمي. فالتذ منها!

***

الموت يضفي الجمال على الحياة، لأنه يجعلك متيقظاً. لا تفوّت القطار على نفسك، لا تفوّت أي شيء على نفسك. إلتذ. تمتع بكل ما يتيسر لك. فالموت آتٍ غداً. الموت ليس عدواً لك. الموت أكبر أصدقائك. لولا الموت، أنتم أجسام مائتة تتحرك هنا وهناك دون

أي هدف، ودون أي معنى ودون أي مأوىٰ، لا غير.

الموت زهرة. الحياة ليست إلّا شجرة. فالشجرة توجد من أجل الزهرة. لا الزهرة من أجل الشجرة. يجب أن تسر الشجرة وتتراقص عند ظهور الزهرة.

***

الانسان البسيط لا شخصية له. الاشخاص المعقدون هم فقط أصحاب شخصيات، جيدة أو سيئة. الموضوع ليس هذا. فهنالك الشخصيات الجيدة والشخصيات السيئة ولكن كليهما معقد. الانسان البسيط لا شخصية له (Characterless). إنه لا هو سيئ ولا هو جيد. ولكن يتمتع بجمال لن يحرزه أي انسان جيد وكذلك سيئ أبداً. فالسيئ والجيد ليس بينهما اختلاف شاسع لأنهما وجهان لعملة واحدة. فالشخص الجيد، سيئ وهو يستقر خلف تلك الشخصية والشخص السيئ جيد وهو يستقر خلف تلك الشخصية.

ـ وفي كتابه «الإبداع» نقرأ:

لا تنس أن الأشخاص المبدعين يحاولون دوماً أن يختبروا طرقاً عابثة. فلو كنت تسير في الطريق الصحيح دوماً، لن تكون مبدعاً أبداً، لأن «الطريق الصحيح» يعني الطريق المكتشف من قبل الآخرين.

***

الذهن الصاخب بالأفكار بحيرة هائجة زاخرة بالالتواءات. والذهن المتجرد عن الأفكار، بحر هادئ خالٍ من الالتواءات. ولا يتجلى الله كاملاً في بحر ذهنك إلّا عندما تفرغ من الالتواءات.

***

مقتطفات من كتاب «في رحاب الخير والشر» للعالم فريدريك نيتشه:

نضوج المرء يعني إستعادت تلك الجدية التي كان الشخص يتمتع بها في أوان طفولته خلال «اللعب».

***

يتطلع الشيطان إلى الله من أوسع المناظر. من هنا يبتعد عنه إلى هذا الحد. فالشيطان يعني أقدم أحباء المعرفة ذاته.

***

ما كان يعتبر في عهد ما شراً، ربما كان صدى في غير محله لما كان يحتسب خيراً في يوم ما. إنه احياء مرضي لطموح قديم.

***

وجود الرحمة بين أهل المعرفة أمر مضحك نوعاً ما كما هي الأيدي اللطيفة على جسم الغوريلا.

***

لا ينفر الانسان قط ممن يحسبه أقل شأناً منه. بل ينفر من يراه صنواً لنفسه أو أعلى مستوى من ذاته.

***

يا من تصدقون الفوائد! أنتم أيضاً تحبون الشيء المفيد لأنه عربة تحمل مطالبيكم. ولكنكم أيضاً مستاءون حقاً من ضجيج

عجلاتها. أليس كذلك؟

***

زهو الآخرين بأنفسهم لا نعتبره مذموماً إلّا عندما يعارض زهونا بأنفسنا.

***

في الكذب براءة تشير إلى الايمان الصحيح بهدف ما.

***

مقتطفات من كتاب «في مدح الجنون» لاراسموس:

... لو كنت بالغاً برقتك وودك درجة تجعلك تصغي إلى كلامي، سوف تتنبه لذلك شريطة ان لا يكون هذا الاستماع مثل انتباهك لمواعظ الخطباء في الكنيسة بل مثلما ترهف السمع إلى المحتالين والمشعوذين والمهرجين في دور العرض وأسواق المزارعين الموسمية.

***

... بعيداً عن هذا، لا أتصور أن سيرة الكثير من العقلاء والعظام ـالذين يوظفون ناطقاً تافهاً أو شاعراً متزلفاً وثرثاراً ليلفق في مدحهم فصلاً كاذباً وغير صحيح ـفيها من التواضع أكثر من زهوي أنا بينما ينشر هذا السلطان الذليل التافه ذراعيه، كما يبسط الطاووس جناحيه وريشه، دون أي خجل وحياء وبالضبط عندما يملأ بطنه بالمأكولات، يحسبونه نموذجاً كاملاً للفضيلة والتقوى

مع العلم والاطلاع على أنه في موقف يعاكس هذا الوصف والتعبير. وهذا الفعل هو في الحقيقة كتزيين الزاغ[١] بريش الطاووس أو تبييض محيا رجل حبشي أو استخدام أوصاف تتعلق بالفيل عند وصف الذبابة.

***

كلما تقلص فهمهم زادهم هؤلاء إطراءاً. فهذا قانون عام في عهدنا وهو أن أي شيء يكثر الإطراء عليه كلما كان أبعد عن ذلك الشأن.

***

أكبر سعادة في الحياة هو فقدان العقل السليم... فأي شخص يعلم أن أحلىٰ سنين العمر وأكثرها لذة هي سنين الطفولة. والآن أتساءل: لولا جذابية الجنون فماذا يمتلك الأطفال لينالوا كل هذا الدلال والمداعبة، والتقبيل والرعاية.

***

انني أنفر من طفل يتسم بتعقل مبكر، فمن ذا يكون على استعداد لمصادقة مسن يتمتع بالقابليات المعنوية والفكرية وبالقدرة على الحكم الدقيق والمتعمق، ويحرز، في ذات الوقت، الخبرات العملية عن دورة الحياة.

***

---

١ ـ طائر كالغراب ولكن أصغر منه. (معجم لاروس)

... الآن صدّقوا قول المجنون الذي يحادثكم: كلما كان الشخص أكثر جنوناً، يكون أسعد وأهنأ شريطة أن نعني بالجنون هو ما أتسببه أنا وأكون مسؤولا عنه. ولحسن الحظ يتسع إدراكي قدراً بحيث لا يخيل إليّ أن يوجد بين أعضاء الصنف الإنساني من يكون عاقلاً ولا يتخبط في نوع من أنواع الجنون دوماً وفي كل ساعة.

***

... سوف تجيبون عليّ أن الانخداع مأساة كبرى. لا، أبداً، فالمأساة الأعظم هو عدم الانخداع! والخطأ الذي لا يوجد أعمق منه هو أن نتصور أن سعادة الإنسان تكمن في حقيقة الأشياء وفي الأمور ذاتها! لا، فالسعادة تنبع مما نتبناه من تصور عن هذه الأمور أو ما يسود حولها من آراء.

«المصادر الفارسية

١ ـ ألن، جيمز: (أنت بالضبط كما تتصور). (ترجمة)

٢ ـ ارجمند، مهدي: (سلوك روحي بازيگر) (المسيرة الروحية لدى المُـمثل). ايـران، مطبوعات الحقل الفني، ١٩٩٨.

٣ ـ الهي قمشه‌اى، حسين: (شادى در پارسايى) (السرور في التقوى). صحيفة ايـران، ١٠ ـ ١٢ ـ ٢٠٠١.

٤ ـ اوشو، باغو انراجنيش: (السر العظيم). (ترجمة)

٥ ـ اوشو: (الحب، رقصة الحياة). (ترجمة)

٦ ـ اوشو: (السر). (ترجمة)

٧ ـ اوشو: (الالماسات). (ترجمة)

٨ ـ اوشو: (الابداع). (ترجمة)

٩ ـ برشت، برتلوت: (أفكار متى). (ترجمة)

١٠ ـ بوبن، كريشتيان: (ضياء الوجود). (ترجمة)

١١ ـ بوبن: (الحياة من جديد). (ترجمة)

١٢ ـ باولو كويلو: (المكاتيب). (ترجمة)

١٣ ـ برلس، فريدريك: (العلاج الجشطالتي). (ترجمة)

١٤ ـ بور جوادي، نصرة الله: (نظرة حديثة). مجموعة مقالات، مطبوعات مركز النشر

الجامعي.

١٥ ـ جبران، جبران خليل: (النبي). بيروت، دار صادر. (المجموعة الكاملة، المعربة عن الانكليزية)

١٦ ـ جبران، جبران خليل: (رمل وزبد). بيروت، دار صادر.

١٧ ـ جلدواتر، روبرت: (الفنانون يتحدثون عن الفن). (ترجمة)

١٨ ـ جوبرا، ديباك: (خلق الكثرة). (ترجمة)

١٩ ـ جهانجير، رامين: (خشونت از ديدگاه قانون وگاندي) (العنف في رأي القانون وغاندي). نشر نوروز، ١٣ ـ ١٢ ـ ٢٠٠١.

٢٠ ـ جيدنز، انطوني: (الحداثة والاعتداد بالنفس). (ترجمة)

٢١ ـ ديكنسون، اميلي: مجموعة الرسائل والأشعار. (ترجمة)

٢٢ ـ ري، غريك: (داو والارتباطات). (ترجمة)

٢٣ ـ ريم، سيلفيا: (الأطفال محدودو التعلم). (ترجمة)

٢٤ ـ سلطاني فر، حجة الله: (كفتمان عشق) (حوار الحب).

٢٥ ـ شاتو، جون: المصلحون العظام. (ترجمة)

٢٦ ـ شِل سيلفور استاين: (عندما كنت في مثل عمرك). (ترجمة)

٢٧ ـ شيخ الاسلام، حسين: (دنيا الشعراء، حوار حر»... شهرية الأطفال والناشئة، العدد ١٢، ايلول عام ٢٠٠١.

٢٨ ـ صادقي مدرس، جعفر: (مختارات من مقالات شمس تبريزي). مطبوعات مركز النشر الجامعي.

٢٩ ـ غرين، (مصنف المتضعفين) أو قاموس المتضعفين.

٣٠ ـ فوكو، ميشل: (تاريخ الجنون). (ترجمة)

٣١ ـ قهرمان، دل آرا: حكايات «زن» المائة (موجزة ومنقحة). مطبوعات «نشر ميترا»، ١٩٩٧.

٣٢ ـ كاميرون، جوليا: (طريق الفنانين). (ترجمة)
٣٣ ـ كراولي، توني: (هكذا يقول العظام). (ترجمة)
٣٤ ـ كريمي، عبد العظيم: (حِكَم مفقودة في عالم التربية)، مطبوعات (تربيت»، ٢٠٠٠.
٣٥ ـ كريمي، عبد العظيم: (لا طائلات منطقية).
٣٦ ـ كريمي، عبد العظيم: (التربية الطبيعية في مواجهة التربية التصنعية).
٣٧ ـ كزازي، مير جلال الدين: (من نمط آخر).
٣٨ ـ لاوتزو: («التاوتي تشنج» أو «مصنف لاوتزو»).
٣٩ ـ لاوتزو: (الاستاذ المسن).
٤٠ ـ لريمو، د.ل: (ثقافة الشعب الكرماني).
٤١ ـ مايكل، جورج: (بسمة المسيح).
٤٢ ـ محمود، مصطفى: (رأيت الله).
٤٣ ـ مورتاي، كريشنو: (التحرر من التعقل).
٤٤ ـ مورتاي، كريشنو: (اللا رضا الإبداعي).
٤٥ ـ مولوي: (فيه وما فيه).
٤٦ ـ ميثمي، سايه: (آفة الزاد الإنساني).
٤٧ ـ نقيب زاده، عبد الحسين: (نظرة إلى فلسفة التعليم والتربية).
٤٨ ـ نيتشه: (في رحاب الخير والشر).
٤٩ ـ نيتشه: (الرغبة والارادة ذات الصلة بالقدرة).
٥٠ ـ نيتشه: (الشطحيات الأخيرة).
٥١ ـ هندي، تشارلز: (عصر الفرار من التقاليد).
٥٢ ـ هندي: (عصر التعارض والتناقض).

«فهرس مندرجات الكتاب»

مختارات استهلالية ٥

المدخل ٩

يحظر أكل الحصى والطين (المقدمة) ١١

الفصل الأول: محظورات التربية ١٥

لا، للنمو السني ١٧

لا، للعقلانية ٢٢

لا، لتعليم الأخلاق ٢٧

لا، للتوجيه ٣٣

لا، للتيقظ ٣٦

لا، للجدية ٣ ..... ٣٩

لا، للطهر دون اختبار ٤٥

لا، لكبح الجهل ٤٨

لا، للتشجيع والعقاب ٥٠

لا، للتعليم ٥٣

لا، لتقصي الابتهاج ٥٧

لا. للتربية ٦٠
لا. للأمان المكتسب ٦٣
لا. للاستنتاج ٦٥
لا. للتسابق والتنافس ٦٩
لا. للحنان والاسناد ٧٣
لا. لتحليل الأشخاص نفسياً ٧٥
لا. للتشخص ٧٧
لا. للعيش دون تعارض ٨٠
لا. للبرمجة ٨٢
لا. لاضطهاد الألفاظ ٨٦
لا. للتطبع بالعادات ٨٨
لا. للتطبيع الديني ٩١
لا. لإخفاء العيوب ٩٤
لا. للتنظيم ٩٦
لا. للذيلية ١٠٠
لا. للمبادرة ١٠٢
لا. للتثقف ١٠٥
لا. للتوجيه الإعلامي ١٠٨
لا. لإسداء النصائح ١١١
لا. للتقولب ١١٤
لا. للادخار ١١٦
لا. للنشاط الزائد ١٢١
لا. لتحاشي الخطر ١٢٣

لا، للنسق المألوف ١٢٥
لا، للانطباعات الذهنية ١٣١
لا، لتقصي الكمال ١٣٦
لا، لتحاشي الظلام ١٣٩
لا، للحياة العقلانية ١٤٤
لا، لايلاء الاهتمام ١٥٠
لا، للتقصي ١٥٢
لا، للاستدراك ١٥٧
لا، للشهرة والمعروفية ١٦٣
لا، للقمع ١٦٥
لا، للتقدم ١٦٧
لا، للفهم ١٧٤
لا، لبعد النظر ١٧٦
لا، للإلزام الديني الاصطناعي ١٧٩
لا، للعلاج النفسي ١٨٤
لا، للاختراع ١٨٨
لا، للانصياع ١٩٠
لا، للتعلم ١٩٢

الفصل الثاني، موضوعات من نوع آخر ١٩٥

تعاريف من نوع آخر ١٩٧
فكاهات من نوع آخر ٢٠٢
أمثال من نوع آخر ٢٠٨

الفصل الثالث: إرشادات عكسية ٢١١
إرشادات عكسية ٢١٣
المصادر الفارسية ٢٢٨
فهرس مندرجات الكتاب ٢٣١